جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

من بلاغة التعبير القرآني في سورة الفتح

الدكتورة
فاطمة عبد الرسول السيد شحاتة
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

العدد الثامن عشر
للعام ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م
الجزء الرابع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٤م
الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد الله الذى أنزل على عبده الكتاب تبياناً لكل شىء، ولم يجعل له عوجاً، وجعله نوراً وهداية لهذه الأمة، وصلاة وسلاماً على من أنطقه ربه بجوامع الكلم، فما ينطق عن الهوى، وخصه ربه بالفصاحة والبلاغة والبيان، فكان أفصح العرب لساناً، وأبينهم حجة وبرهاناً، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد

فمن حكمة الله ورحمته أن أنزل كتابه تبياناً لكل شىء قال تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ٨٩﴾ [سورة النحل آية ٨٩].

وقيض له من العلماء القدماء والمحدثين من يعملون على تأمل النص القرآنى للكشف عن الأسرار البلاغية أو اللغوية التى تنبثق من هذا الكتاب الجليل ، تلك الأسرار التى تفوق الحصر ، فكلما أفضى تأملهم إلى إشراقات بلاغية أو لغوية أيقنوا أن تلك الإشراقات ما هى إلا ومضة من نور ربانى تنير الكون وتكون هداية وبرهاناً لهذه الأمة .

فالاستفادة الحقة من كتاب الله – عزوجل – تكون بمداومة الصلة به علماً وعملاً، تلاوة وتدبراً، وفهماً عميقاً يقوم على الربط والتحليل والاستنتاج ، لاجتلاء ما ينطوى عليه القرآن الكريم من أسرار ولطائف تظهر عظمته وإعجازه.

قال تعالى : ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [سور ص آية ٢٩].

وهذا هو الهدف الأسمى ، والمقصد الأسنى من دراسة البلاغة العربية لكتاب الله – عز وجل – على مدار الأزمنة وتوالى العصور.

وكان هذا السبب الأول لاختيارى موضوع البحث من بلاغة النعبير القرآني فى سورة الفتح .

فلعلى أكون من أولئك الباحثين الذين ينهلون من فيض عطاياه ، وما وقف عليه العلماء القدماء والمحدثون ليس نهاية المطاف ، إذ إن معاودة التأمل والتدبر فى الدراسات القرآنية المتعلقة بأسرار الإعجاز القرآنى ، قد تعد فتحاً جديداً ، فكم ترك الأول للآخر .

فالقرآن الكريم هو السراج الذى لا ينطفئ ، والمعين الذى لا ينضب ، والحارس الذى لا يغفل، والمداد الذى لا ينقطع .

أما السبب الآخر : فهو قول الرسول – ﷺ– " نزلت عليَّ البارحة سورة هى أحب إليَّ من الدنيا وما فيها".(رواه أحمد في مسنده ١/٢٥٥)

فقد ذكر – ﷺ– هذا القول ولم تكن حياته فى المدينة وصحابته سهلة هادئة ، ولكنها حياة كفاح وتضحية ، وتجربة عميقة يستفيد منها المؤمنون فى شتى العصور والأزمان.

فأردت من خلال دراسة نظم السورة الكريمة بيان تلك التجربة، وكيف أوردها المولى – عزوجل – فى نظم بلاغى يثير العقل ويأسر القلب، ويوضح أن أعظم أسلحة امتلكها المؤمنون فى ذلك الوقت، هى حقيقة الإيمان العميق بالله تعالى، لذا ظفروا بأعدائهم وكان نصر الله حليفهم.

" إن الأمة التى لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل ، وإن الأمة التى لا ماضى لها لا مستقبل لها"[١].

* ومنهج البحث يقوم على التذوق البلاغي لجميع آيات السورة حتى أوضح ما فيها من نظم دقيق يظهر مدى الإعجاز البلاغي والذى ينبعث من جزالة نظم القرآن الكريم، وحسن أسلوبه، ومن بديع أساليبه وجودتها وغرابتها ، ومن براعة بيانه وتفوقه، ومن قوة معانيه وصدقها، ومن فصاحة ألفاظه وسلامتها ، تلك الفصاحة التى تنبعث من البنية المعجمية والصرفية والصوتية للكلمة .

وقد قسمت السورة إلى موضوعات حتى يمكن إظهار ما فيها من بلاغة تنوع فيها الأسلوب البلاغي حسب كل موضوع ، ليتخير النظم مايلائم

(١) فى منزل الوحى محمد حسين هيكل ص ٢٤.ط دار الكتب المصرية١٣٥٦

كل موضوع في إعجاز يبهرالعقول ، ويوقظ الأفئدة إلى تدبر كلام الله

فبهذه البلاغة الخارقة تحدى القرآن الكريم أذكى بلغاء العرب، وأبرع خطبائهم فما عارضوه بل خضعت رقابهم فى ذل ونكسوا رؤسهم بهوان.

وقد جاء البحث فى مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة وثبت للمصادر والمراجع ، وفهرس للموضوعات .

أما المقدمة فقد ذكرت فيها سبب اختيار الموضوع ، والمنهج المتبع فى البحث .

* وأما التمهيد فكان إطلالة على السورة الكريمة ويشتمل على :

- بيان سبب تسمية السورة .
- عدد آياتها – مكية السورة أو مدنيتها .
- ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها .
- الأفكار الكلية للسورة الكريمة

فكان الفصل الأول بعنوان : من بلاغة التعبيرالقرآني في الفتح المبين ويشتمل على :

المبحث الأول : الرسول – ﷺ– والفتح المبين .

المبحث الثانى: المؤمنون والفتح المبين.

المبحث الثالث : بيعة الرضوان.

وكان الفصل الثانى بعنوان : من بلاغة التعبير القرآني في الحديث عن الأعراب وصفاتهم كما وردت فى السورة ويشتمل على

المبحث الأول : الأعراب والدعوة إلى القتال فى سبيل الله .

المبحث الثانى : الأعراب والغنائم .

وكان الفصل الثالث بعنوان :من بلاغة التعبيرالقرآني في الحديث عن المؤمنين ويشنمل على :

المبحث الأول : صفات المؤمنين كما وردت فى السورة

المبحث الثانى : نصر الله للمؤمنين .

المبحث الثالث : ثناء الله – تعالى – على الرسول– ﷺ– والمؤمنين

وكان الفصل الرابع بعنوان :

من بلاغة البنية المعجمية والصوتية والصرفية فى السورة ويشتمل على:

المبحث الأول : بلاغة البنية المعجمية للفظة المتغيرة فى التركيبين المتماثلين فى السياق .

المبحث الثانى : بلاغة البنية الصوتية للفظة الفاصلة وأثرها على نظم السورة.

المبحث الثالث : بلاغة البنية الصرفية للفظة " فن التصريف" .

وكانت **الخاتمة** ليسجل فيها أهم نتائج البحث والتوصيات .

ثم ذكرت ثبت المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات .

والله – عز وجل – أسأله التوفيق والسداد ، وأن أكون ممن اختصهم الله – تعالى – وشرفهم بالبحث فى كتابه العزيز ، فأكون من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د/ فاطمة عبد الرسول السيد شحاتة

التمهيد

إطلالة على السورة الكريمة ويشتمل على

سبب تسمية السورة
عدد آياتها – مكية السورة أو مدنيتها
ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها
الأفكار الكلية للسورة الكريمة

التمهيد

إطلالة على السورة الكريمة

سورة الفتح تسع وعشرون آية فى شأن الحديبية[١]من أولها لآخرها نزلت السورة الكريمة لما رجع رسول الله – ﷺ– من الحديبية فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صده المشركون من الوصول إلى المسجد الحرام فيقضى عمرته فيه وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل فأجابهم إلى ذلك على كره من جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب[٢].

وقيل نزلت بموضع يسمى كُراع الغميم موضع بين مكة والمدينة وهو من أرض مكة [٣].

وقيل نزلت بضَجْنان (بوزن سَكرْان) ، وهو جبل قرب مكة [٤].

*** مكية السورة أو مدنيتها** :

القول بأن السورة مدنية[٥] بلا خلاف فيه نظر ظاهر .

فعلى القول بأن ما نزل بعد الهجرة سواء نزل بالمدينة أم بمكة ، والمكى ما نزل قبل الهجرة ، فهى مدنية ، لأنها نزلت بعد الهجرة .

وأما على القول بأن المكى ما نزل ولو بعد الهجرة بمكة ونواحيها كمنى وعرفات والحديبية، والمدنى ما نزل بالمدينة ونواحيها كأحد وبدر وسلع ، فتكون مكية ؛ لأنها نزلت بموضع من أرض مكة .

---

(١) خرج رسول الله – ﷺ– فى ذى القعدة معتمراً واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش الذى صنعوا أن يعترضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت ، فأبطأ عليه كثير من الأعراب ، وخرج رسول – ﷺ– بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى" . ينظر السيرة النبوية لابن هشام ٢٢٩/٣ (دارالتراث)، والبداية والنهاية لابن كثير : ٢١٧/٣ ، ٢٦٨/٤ ط٣ دار الكتب العلمية ١٩٨٧م

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٨٢/٤.(دار التراث ١٤٠٠ه –١٩٨٠م)

(٣) روح المعانى للألوسي ٢٦ / ٨٣ ط١٩٨٥/٤م ،

(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٥٢.تأليف علي أحمد شهاب الدين (دار صادر)

(٥) المكى والمدنى : مباحث فى علوم القرآن د/ صبحى الصالح ص ١٦٧ (ط١٦ /دار العلم) .

*** فضل السورة** :

" روى عن أنس قال : لما رجعنا من غزوة الحديبية ، وقد حيل بيننا وبين نسكنا ، فنحن بين الحزن والكآبة أنزل الله – عز وجل – " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا " فقال رسول الله – ﷺ– " نزلت عليَّ آية هى أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها"(١).

وأخرج البخارى والترمذى عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال : " كنا مع رسول الله – ﷺ– فى سفر فسألته عن شىء ثلاث مرات فلم يرد علىّ فحركت بعيرى ، ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فىَّ القرآن ، فما نشبت إذ سمعت صارخاً يصرخ بي فوجفت وأنا أظن أنه نزل فىّ شىء فقال النبى – ﷺ– : لقد أنزلت علىَّ الليلة سورة أحب إليَّ من الدنيا ومافيها " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا "(٢).

سميت بسورة الفتح كما ورد فى كلام الصحابة. جاء فى صحيح البخارى عن عبد الله بن مغفل : قرأ النبى : – ﷺ– "سورة الفتح".

ووجه التسمية : أنها تضمنت حكاية فتح الله للنبى(٣) – ﷺ– وفيها تبشير له – ﷺ– والمؤمنين بالفتح المبين .

فقد روى عن موسى بن عقبة أقبل رسول الله – ﷺ– من الحديبية راجعاً فقال رجل من أصحابه ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت ، وصد هدينا ، فبلغ النبى – ﷺ–.

فقال : بئس الكلام هذا بل هو أعظم الفتوح ..." (٤).

وسيأتى تفصيل ذلك عند الوقوف على تحليل الآيات تحليلاً بلاغياً.

---

(١) لباب النقول للسيوطى ص ٢١٥ ط١ /دار الكتب ٢٠٠٣م، أسباب النزول للنيسابوري ص ٣٢٣(ط٢ / ١٤١٥هـ)

(٢) رواه أحمد في مسنده ١/٢٥٥ ح٢٠٩ (ط١ دار الحديث ١٤١٦ه)، روح المعانى: ٨٣/٢٦.

(٣) صحيح البخاري ٣ / ١١٦٢، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٤١/٢٦ (الدار التونسية ١٩٨٥م)

(٤) الكشاف للزمخشري: ٦/ ٢.(ط٢ دار المصحف ١٣٩٧ه _ ١٩٧٧م)

* ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها :-

سورة الفتح وثيقة الصلة بالسورة قبلها وهى سورة محمد وتسمى سورة القتال [١]، والفتح بمعنى النصر مرتب على القتال .

" ففى سورة محمد أمر الله المؤمنين بقتال الكافرين فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ [٢].

ووعدهم بالنصر فقال : ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [٣].

ووضح الله النصر فى سورة الفتح : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[٤].

يقول صاحب نظم الدرر[٥].

" لما أمروا بقتال عدوهم فى قوله تعالى : " فَإِذا لَقِيتُمُ ...." وشعروا بالمعونة عند وقوع الصدق فى قوله :" إِن تَنصُرُوا اللَّهَ ..." استدعى ذلك تشوق النفوس إلى حال العاقبة ، فعرفوا ذلك فى هذه السورة " إِنَّا فَتَحْنَا " معرفاً تعالى بنبيه – ﷺ– بعظيم صنعه له ، وأتبع ذلك بشارة المؤمنين ،" هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ "

وفى سورة محمد قال تعالى : ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾[٦].

فالمؤمنون هم الأعلون ، وبرهن الله على ذلك بالتفصيل فى سورة الفتح حيث كان ذلك واضحاً فى فتح مكة .

" فلم يلحقهم وهن ولا دعوا إلى الصلح بل أتى صناديد قريش مستأمنين مستسلمين"[٧].

---

(١) الكشاف ٥/ ٢٦٠ ، فى ظلال القرآن سيد قطب ٢٦/ ٣٢٧٨(.ط١٢ دار الشروق)
(٢) سورة محمد آية : ٤.
(٣) سورة محمد آية : ٧.
(٤) سورة الفتح آية ١.
(٥) برهان الدين ابن الحسين إبراهيم البقاعى فى كتابه نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ١٨٥/٧.(ط١ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م)
(٦) سورة محمد آية ٣٥.
(٧) روح المعانى : ٢٦/ ٨٦.

وفى سورة محمد قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾(١).

أمر بالاستغفار فعلل المغفرة فى سورة الفتح : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا *وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾(٢).

" وعلل المغفرة باجتماع ما عدد من الأمور الأربعة وهى المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز .

كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل (٣).

وفى سورة محمد ذكر طبع الله على قلوب الكافرين والمنافقين ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾(٤).

وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾(٥).

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾(٦).

أما فى سورة الفتح فقد ذكر قلوب المؤمنين ليظهر التباين والاختلاف بينهما .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(٧).

---

(١) سورة محمد آية ١٩.
(٢) سورة الفتح الآيتان ٢ ، ٣ .
(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٨.
(٤) سورة محمد آية ١٦.
(٥) سورة محمد آية ٢٠.
(٦) سورة محمد آية ٢٤.
(٧) سورة الفتح آية ٤.

فى سورة محمد ذكر أوصاف الأنهار مجملة ومفصلة ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾(١) وقال تعالى : ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾(٢).

وأجمل ذكرها فى سورة الفتح قال تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(٣).

فى سورة محمد ذكر ولاية الله للمؤمنين ، وافتقاد الكفار لتلك الولاية قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾(٤).

وأكد على ذلك فى سورة الفتح قال تعالى : ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾(٥).

فى ختام سورة محمد : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾(٦).

هو خطاب لكفار قريش أخبر رسوله – ﷺ– بالفتح العظيم (٧).

ارتباط السورة بما بعدها :

ترتبط سورة الفتح بسورة الحجرات كما ارتبطت بسورة محمد، فهم مشتملون على أحكام تشريعية فى المعاملات والعبادات، ففى سورة محمد حيث قتال الكفار، والجهاد فى سبيل الله فى كافة مناحى الحياة ومنها مجاهدة النفس ، وحسن الأخلاق .

---

(١) سورة محمد آية ١٢.
(٢) سورة محمد آية ١٥.
(٣) سورة الفتح آية ٥.
(٤) سورة محمد آية ١١.
(٥) سورة الفتح آية ٢٢.
(٦) سورة محمد آية ٣٨.
(٧) البحر المحيط :٨ / ٨٨.

واختتمت سورة الفتح بقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[١].

وافتتحت سورة الحجرات بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢].

وتضمنت سورة الفتح تشريعاً له – ﷺ– خصوصاً مطلعها . وسورة الحجرات تضمنت أنواعاً من التشريف له – ﷺ– [٣].

جاء فى نظم الدرر [٤]:

" لما نوه سبحانه فى القتال بذكر النبى – ﷺ– وصرح فى ابتداء السورة باسمه الشريف وسمى السورة به ، وملأ سورة الفتح بتعظيمه ، وختمها باسمه ومدح أتباعه لأجله ، افتتح سورة الحجرات . باشتراط الأدب معه فى القول والفعل ... ومداد ذلك معالى الأخلاق".

وبهذا يتضح أن خواتم السور مثل الفواتح فى الحسن، لأنها آخر ما يقرع الأسماع فإذا جاءت متضمنة للمعانى البديعية، مع ايذان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع منه تشوقت النفس إلى ما يذكر بعد[٥].

الأفكار الكلية للسورة الكريمة:

لقد تحمل الرسول– ﷺ– شروط صلح الحديبية والتى لا يصبر عليها إلا أولوا العزم من الرسل ، وهو من أعظم المناقب .

وقد بشره الله – عز وجل – فى مفتتح السورة بالفتح المبين ، " إِنَّا فَتَحْنَا " مكناك من فتح ما كان مغلقاً فى وجه دعوتك "[٦].

---

(١) سورة الفتح آية : ٢٩.
(٢)سورة الحجرات آية : ١ .
(٣) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ص ١٣٢ بتصرف. (دار الإعتصام)
(٤) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ٧/ ٢٢٠.
(٥) البرهان فى علوم القرآن للزركشي ١/ ١٨٢.(ط٢ ــ المكتبة العصرية١٤٠٨ه١٩٨٨م)
(٦) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ص ٢٨٦.

وكان له غفران الذنوب ، وإتمام النعمة وهدايته إلى الصراط المستقيم ، والنصر العزيز .

قال تعالى : إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا *وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا * هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة الفتح ١ – ٣].

ثم ذكر أثر هذا الفتح على المؤمنين بإنزال السكينة فى قلوبهم ، والثبات عند نزول المحن ، فمن نعم الله على عباده المؤمنين إنزال السكينة على قلوبهم ليتلقوا تلك المصاعب والمشقات بقلوب ثابتة ونفوس مطمئنة .

وكان الحديث عن إيمانهم السابق وزيادته ، وقد قيد الله – عز وجل – لهم جنوداً فى السماوات والأرض تحت تدبيره فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه ، ولكنه تعالى عليم حكيم يؤخر نصر المؤمنين إلى وقت يعلمه الله – عز وجل – .

وقد بشر الله المؤمنين بالمغفرة ودخول جنات تجرى من تحتها الأنهار، وأظهر التباين والاختلاف بينهم وبين المنافقين والمشركين الذين استحقوا غضب الله ولعنته .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا * وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [سورة الفتح : ٤ – ٧].

* وكانت بيعة الرضوان، والحديث عن الوفاء بالبيعة، وإظهار حقيقتها وأنها مبايعة مع الله – عز وجل – وقد أشار بذلك إلى تكريم المبايعين وتعظيم شأن البيعة، كما أشار إلى النكث بمناسبة الحديث عن الأعراب المتخلفين عن الخروج مع الرسول – ﷺ – ، وكذلك المنافقين والمنافقات فى إشارة عابرة ، ليظهر من خلالها وفاء المؤمنين فى تلك البيعة حيث بايعوا الرسول – ﷺ – على الجهاد فى سبيل الله حتى الموت قال تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا * إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الفتح ٨ – ١٠].

* وتحدثت السورة الكريمة عن الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول – ﷺ – من الأعراب وهم أعراب غفار، أسلم، جهينة[١]. ومن المنافقين الذين ظنوا الظنون السيئة بالرسول – ﷺ – ومن معه من المؤمنين، وكشفت أعذارهم الكاذبة وموقفهم من الغنائم .

ووجه الله – عز وجل – رسوله الكريم – ﷺ – إلى ما ينبغى أن يكون موقفه منهم فى المستقبل ، وأن الله – عز وجل – سيفتح على المؤمنين فتوحاً قريبة لا ينبغى أن يشاركهم فيها المخلفون من الأعراب ، ثم وضح أصحاب الأعذار الحقيقية الذين لهم الحق فى التخلف عن الخروج مع الرسول – ﷺ – .

قال تعالى : ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الاعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا * وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا

(١) معانى القرآن للفراء ٦٥/٣، تفسير أبى السعود ٥/ ٥٩٨.

انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلا قَلِيلا * قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الاعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَيسَ عَلَى الاعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [سورة الفتح : ١١ – ١٧].

ويأت الحديث عن المؤمنين مفصلاً ، ويكشف لهم عن رضى الله عنهم ، وما أعده لهم من الغنائم ، ويظهر موقف المؤمنين من أعدائهم .

وهو حديث يتجلى فيه الله عليهم برضوانه وبشرياته وامتنانه ، ويبلغهم بأشخاصهم وأعيانهم أنه راض عنهم .

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا * وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الادْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا * وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الآيات : ١٨ : ٢٦].

وذكرت السورة الكريمة الرؤيا التى رآها الرسول – ﷺ– فى منامه وهو فى المدينة المنورة ، حيث دخل – ﷺ– والمسلمين معه مكة آمنين مطمئنين ، وقد فرح الصحابة – رضوان الله عليهم – واستبشروا بتلك الرؤيا ، والتى تحققت فقد دخل المؤمنون معتمرين وهم فى أمن وطمأنينة .

قال تعالى : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[سورة الفتح الآية : ٢٧].

وجاء ختام السورة الكريمة ثناء على الرسول – ﷺ– وأصحابه – رضوان الله عليهم –

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا * مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الانجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الفتح : ٢٨ – ٢٩].

الفصل الأول
من بلاغة التعبير القرآني في
الفتح المبين ويشتمل على

المبحث الأول : الرسول – ﷺ والفتح المبين
المبحث الثاني : المؤمنون والفتح
المبحث الثالث : بيعة الرضوان

المبحث الأول

مع استهلال السورة

الرسول – ﷺ – والفتح المبين

قال تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[١].

تبدأ السورة الكريمة بداية تجذب الألباب، وتأسر الأذهان، وتجعل لها خصوصية واضحة، حيث الجملة الخبرية، وإذا تتبعنا استهلال سور القرآن الكريم نجد أن هذا الاستهلال ورد فى ثلاث وعشرين سورة [٢].

وللخبر مكانته فى البلاغة العربية ، وقد ذكر ذلك الإمام عبد القاهر الجرجانى حيث قال : " فاعلم أن معانى الكلام لا تتصور إلا فيما بين شيئين والأصل والأول هو الخبر ... ومن الثابت فى العقول والقائم فى النفوس أنه لا يكون خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه "[٣].

وتكتسب السورة الكريمة الخصوصية حيث جاء الخبر مؤكداً بثلاث مؤكدات "إن، المفعول المطلق، أسلوب القصر " وجاء التأكيد مصدرًا بـ"إن" التى تجعل للتركيب أهميته ، وتهيئ المتلقى ، وتحفز تفكيره ليتساءل عن كنه المعنى وحقيقته الذى تعرضه الآية مؤكدًا .

فالله – عز وجل – يخبر رسوله – ﷺ– عن الفتح ، ويشير من بداية السورة على أنه من الأمور العظيمة التى يجب أن تتأكد فى النفوس.

---

(١) سورة الفتح الآيات ١: ٣.

(٢) سور القرآن الكريم التى افتتحت بالجملة الخبرية : الأنفال ، التوبة ، النحل ، الأنبياء ، المؤمنون ، النور ، الزمر ، محمد ، الفتح ، القمر ، الرحمن ، المجادلة ، الحاقة ، المعارج ، نوح ، القيامة ، عبس ، البلد، القدر ، البينة ، القارعة ، التكاثر ، الكوثر.

(٣) دلائل الإعجاز ص ٥٤١ .تحقيق محمود شاكر

والخبر هو قول يحتمل الصدق والكذب لذاته ، وصدق الخبر مطابقة حكمه للواقع وكذبه عدم مطابقة حكمه له ، ينظر مفتاح العلوم للسكاكى ص ٩٤ . وينظر التعريفات للشريف على بن محمد الجرجانى ص ٩٦.

فبلاغة الخبر الاعتناء بشأن الحكم فى ذاته والذى يتضمنه الخبر كما يمكن أن يكون التأكيد للمؤمنين حيث نزلوا منزلة السائلين عن حقيقة الفتح ويؤكد ذلك ما وقع لعمر بن الخطاب – ﷺ– " فعن عمر أنه لما نزلت " إنا فتحنا ...." قال : أو فتح هو يا رسول الله قال: نعم والذى نفسى بيده إنه لفتح "(١).

فالتردد لا يلزم أن يكون ممن أُلقى إليه الكلام ، ولكن يكون مصروفاً للسامعين على طريق التعريض ؛ لأن النبى– ﷺ– لم يكن متردداً ولا منكراً فيما أخبره الله – عز وجل – .

وتعريف المسند إليه بالضمير الدال على جماعة المتكلمين "إنا" الذى يشير إلى الذات الإلهية ، ليشعر بعلوه – عز وجل – واستعلائه ، وعظمته ، فيلقى فى النفوس المهابة والإجلال للخالق – عز وجل – الذى يؤيد رسوله – ﷺ– بهذا الفتح الذى يأتى مباشرة من صاحب العزة والسلطان ، وبهذا ينبه على عظمة هذا الفتح ، ولو عرف المسند إليه بالعلمية دون ضمير التكلم ، لم يكن هذا الإعجاز البلاغى فى النظم ، فالله – عز وجل – يريد أن ينص على حقيقة هذا الفتح، وعلى عظمته، والتأكيد على وقوعه من خلال إظهار واهبه متكلماً.

وجاء المسند "فتحنا" عبر عنه بالفعل الماضى الذى يقرر ويثبت حقيقة الفتح فقد عبر عن المستقبل بلفظ الماضى ، لأنها نزلت حين رجع الرسول – ﷺ– من الحديبية قبل عام الفتح.

وبلاغته : أن أخبار الله – عزوجل – لما كانت محققة نزلت منزلة الموجودة، وفى هذا إشارة إلى علو شأن المخبر عنه .

ويكرر المسند إليه بضمير جماعة المتكلمين ويتصل بالفعل "فتحنا" ليؤكد على الذات الإلهية المستحقة للإجلال والتعظيم،وأنه فتح محقق لأن المخبرهو الله القادر .

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور : ٧/ ١٨٥ ، وينظر – صحيح مسلم فى الجهاد والسير ١٤١٣/٣ ــ وينظر فقه السيرة النبوية ص ٣٣٥ .

وهذا الإسناد الخبرى الذى جاء خبراً للمبتدأ فيه ضمير عائد على الذات الإلهية زاد من ترقب المتلقين للوقوف على كنه الفتح الذى تعرضه الآية الكريمة.

وفي الجاة إيجاز بحذف مفعول "فتحنا" حيث لم يصرح بالمفتوح ففى الجملة إيجاز بالحذف ليشير إلى شمولية هذا الفتح(١) ، فلا يريد الله – عز وجل – أن يخصه بفتح معين، فيترك المعنى يتسع ويستوعب الكثير من المعانى ، وبهذا يعطى للعقل مكاناً أرحب، وميداناً أوسع ليجول الخاطر فى كل معنى يمكن أن يشتمل عليه الفتح،كما يجعل الاهتمام ينصب على الفتح الذى هو جوهر التبشير، وأكد على هذا الأمر من خلال تنكير المفعول المطلق "فتحاً" .

فإيجاز الحذف له بلاغته فهو باب "دقيق المسلك ، لطيف المأخذ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن" (٢).

" فالحذف جعل الفتح يشمل صلح الحديبية، وفتح خيبر، وفتح مكة(٣) وغيرها من البلدان ؛ لأن صلح الحديبية هو رأس الفتوح كلها إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه .

وقيل : "عُنى ما فُتح على النبى – ﷺ– من العلوم والهدايات التى هى ذريعة إلى الثواب والمقامات المحمودة التى صارت سبباً لغفران ذنوبه"(٤).

فالحذف يكون مطلباً عالياً للارتقاء بالتراكيب، والارتفاع بها إلى سماء عالية حين يأتى في موضعه ومكانه،ولا يغمض به الأسلوب،ولا يلتوى به القصد (٥).

---

(١) الفتح قد يكون صلحاً ، ويكون أخذ الشىء عنوة ، ويكون القتال . ينظر معانى القرآن للفراء ٦٤/٣ . وقيل : الفتح إنما هو الظفر بالمكان والمدينة والقرية كان بحرب أو بغير حرب أو كان دخول عنوة او صلح . ينظر : معانى القرآن وإعرابه للزجاج ١٩/٥ .
(٢) دلائل الإعجاز ص ١٤٦ تحقيق محمود شاكر .
(٣) البحر المحيط ٨٩/٨ .
(٤) المفردات للراغب الأصفهاني (ص ٣٧٠ (ط١(١٣٨١ه١٩٦١م).
(٥) من بلاغة المعانى أ.د/ الوصيف هلال الوصيف ص ٧ .

"إنه الإعجاز يلبس ثوب الإيجاز فتخر لعظمته جباه أساطين البيان ، وتسجد لجماله أفكار دهاقين الكلام"(١). وتقديم الجار والمجرور "لك" يبرز المفتوح له ، وهو الرسول – ﷺ– مخاطباً ، ليمتلئ قلبه يقيناً وسكينة بهذا الفتح المبين .

وهنا يبرز أسلوب القصر عن طريق تقديم شبه الجملة بين الفعل والفاعل "فتحنا" والمفعول المطلق "فتحاً" حيث قصر الفتح على الرسول – ﷺ– قصر صفة على موصوف ، ليختص به الرسول فهو فتح له خاصة ، ليكون بشارة تتنزل من خلالها السكينة فى قلبه – ﷺ– .

– وبذلك يظهر الله – عز وجل – مع رسوله – ﷺ– فالله متكلماً ورسوله مخاطباً، وبذلك يعيش المتلقى مع النص القرآنى، وهو يستشعر هذه العلاقة الوثيقة بين الفاتح والمفتوح له، متكلماً ومخاطباً فى خصوصية تؤكد على مكانته – ﷺ– .

كما تلقى بالبشارة والسكينة فى نفوس المؤمنين، ليستشعروا بحسن عاقبة صلح الحديبية، فيزيل ما فى قلوبهم من حزن بسبب عودتهم خائبين دون تحقيق العمرة، وكان هذا صعباً على نفوس آمنت بربها، وقوى إيمانها، وفى سبيله تهون أرواحهم ، لكنهم عادوا مستشعرين الغلبة من قلة، فأعلمهم الله – عز وجل – بأن العاقبة ستكون لهم ، وأن صلح الحديبية بداية للنصر الذى سبقه صبر جميل، وسوف تكون دائرة السوء على المشركين والمنافقين.

وإذا تأملنا لفظ "فتح" نجد أن أصله إزالة الاغلاق(٢) جاء يستفتح الباب(٣)، ومن المجاز فتح الله عليه نصره ، واستفتح الله للمسلمين على الكفار ... وفتح المسلمون

---

(١) الإعجاز فى نظم القرآن أ.د/ محمود شيخون ص ٨٧ .

(٢) المفردات ص ٣٧٠. .

(٣) ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ [سورة الأعراف / ٤٠]. وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ﴾ [سورة يوسف / ٦٥] ، وبأت بمعنى القضاء ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ أى يقضى [سورة سبأ آية ٢٦] ، ينظر بصائر ذوى التمييز : ١٦١/٤ .

دار الكفر "[١].

" فهو فتح ؛ لأن الموضع يكون منغلقاً ، فإذا صار فى اليد فهو فتح"[٢].

وبذلك يكون فى الآية تصوير عن طريق الاستعارة التبعية حيث شبه الظفر بالمكان والاستحواذ عليه بإزالة الإغلاق منه ، واستعير الفتح الذى هو إزالة الإغلاق للظفر بالمكان ، واشتق من الفتح الظفر والاستحواذ على المكان على سبيل الاستعارة التبعية .

وبلاغتها : التأكيد على تمكن الرسول- ﷺ- والمؤمنين من فتح مكة وغيرها من البلدان التى ستقع فى أيديهم ، وتصبح مفتوحة لهم ، كما فيه تجسيم وتشخيص للأسباب التى ييسرها الله – عز وجل – لهم للنصر على الأعداء ، فهى كالمفتاح لا يكون إلا مع صاحب المكان ، فسوف يكون لهم الغلبة والنصر على الأعداء وسينتشر الإسلام فى ربوع الأرض

وإذا كان صلح الحديبية فتحا ، لأنه بداية وتوطئة لفتح مكة ، يكون فى الآية مجاز مرسل بعلاقة السببية ، وقد ذكر المفسرون[٣] أنه لم يكن أعظم من صلح الحديبية ، حيث اختلط المسلمون بالمشركين وسمعوا كلامهم ، وبذلك اطلع خلق كثير على الإسلام ، فدخل منهم الكثير فى الإسلام وتمكن من قلوبهم وأصاب الرسول – ﷺ- ما لم يصب فى غزوة ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، بويع بيعة الرضوان ، وأطعم نخل خيبر ، وبلغ الهدى محله .

وجعله الألوسى[٤] مرتبطاً بما ورد فى نهاية سورة محمد {فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ} فهو برهان على فتح مكة حيث لم يلحقهم وهن ولا دعوا إلى الصلح ، بل أتى صناديد قريش مستأمنين مستسلمين.

ولا مانع أن يكون فى الآية تصوير عن طريق المجاز يشمل نوعين من العلاقة .

---

(١) أساس البلاغة ص ٤٦١ ، ٤٦٢ .
(٢) معانى القرآن وإعرابه للزجاج : ١٩/٥ .
(٣) تفسير القرطبى : ٢٥٩/١٦ .
(٤) روح المعانى ٢٦/ ٨٦.

ومن ثم جاء المصدر المؤكد منكرا "فتحاً" ليوحى بالعموم والشمول ، فيشمل صلح الحديبية وفتح مكة وغيرهما ، وجئ المستقبل بصيغة الماضى لتنزيله منزلة المحقق ، وهذا الأسلوب إنما يأت فى الأمر العظيم الذى لا يقدر على مثله إلا من له قهر وسلطان.

" وهذا يدل دلالة على كمال العلم وجلالة القدر حيث استوى عنده الحال والاستقبال فيقع ما أراده البتة من غير مانع لقضائه أو تردد فى إمضائه " (١).

" وكان فتح الحديبية آية عظيمة من آيات النبى – ﷺ– وذلك أنها بئر فاستصُفى جميع ما فيها من الماء ، حتى نزحت ولم يبق فيها ماء ، فتمضمض رسول الله – ﷺ– ثم مجّه فيها فدرت البئر بالماء حتى شرب جميع من كان مع النبى – ﷺ– وليس يخرج هذا من معنى فتحنا لك فتحاً مبيناً يُعنى به الهداية إلى الإسلام "(٢).

وتختتم الآية بالوصف "مبيناً" من أبان بمعنى بان اللازم أى: فتحاً بيناً ظاهر الأمر مكشوف الحال ، أو فارقاً بين الحق والباطل(٣).

فهو فتح ظاهر واضح ، ويأت التصوير عن طريق البناء الصوتى للكلمة مبرزاً لهذه الحقيقة ، فقد تضمنت الآية من الأصوات الميم والنون، وهما صوتان يتميزان بالوضوح ، وكذا الألف التى تدل على الاتساع ، والباء المجهورة ، ففى اجتماع تلك الأصوات التى تدل على الوضوح تبرز حقيقة الفتح ، فقد جاء الإيقاع الصوتى للكلمة ليطابق المقصود منها فى بلاغة تهز الأفئدة والعقول نحو التعمق فى كتاب الله – عز وجل – وبذلك يتضح أن أصوات الحروف ليست بمعزل عن الدلالة وذلك أنها حينما تؤثر فينا تأثيراً فنياً وجدانياً توقظ الحواس على معان لم نكن لندركها إلا من خلال إيقاع هذه الحروف الصوتية .

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوى ٥/ ٤ .
(٢) معانى القرآن وإعرابه للزجاج : ٥/١٩.
(٣) روح المعانى ٢٦/ ٨٩ .

ويعدد الله – عز وجل – نعمه على رسوله – ﷺ– حيث قال : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ .

جاءت الآية الكريمة مفصولة عن سابقتها ، ولم يوصل بينهما بالواو العاطفة ، وتحقق الفصل وذلك لكمال الاتصال(١) حيث جاءت هذه الآية بدل اشتمال من قوله "لك" فى الآية السابقة

فبين الآيتين اتصال واتحاد بحيث صارا كالشىء الواحد ، ولا يعطف الشىء على نفسه فمن إعجاز نظم الآية ترك العطف.

وقد صدرت الآية بلام التعليل "ليغفر" التى تجعل المتلقى يتلمس الصلات والدلالات التى تجمع بين الآيتين ، فالآية تشير عبر مضمونها بما حققه صلح الحديبية للدين الإسلامى من خير كثير ، وما كان ذلك إلا بقوة الصبر والمثابرة ، وما تحمله – ﷺ– من شروط لهذا الصلح لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين ؛ لذا استحق على ذلك ما أنعم الله به عليه من غفران للذنب كله ، وإتمام النعمة ، والهداية إلى الصراط المستقيم والنصر العزيز ، فعدد عليه هذه النعم ، وقد وصلها بما هو أعظم النعم وهو الفتح ؛ فكأنه قيل يسرنا لك فتح مكة ، ونصرناك على عدوك ، لتجمع لك عز الدارين ، وأغراض العاجل والآجال "(٢).

وجعلت مغفرة الله للنبى – ﷺ– علة للفتح " لأنها من جملة ما أراد الله حصوله بسبب الفتح ، وليست لام التعليل مقتضية حَصْرَ الغرض من الفعل المعلل فى تلك العلة ، فإن كثيراً من الأشياء تكون لها أسباب كثيرة ، فيذكر بعضها مما يقتضيه المقام ، وإذ قد كان الفتح لكرامة النبى – ﷺ– على ربه تعالى كان من علته أن يغفر الله لنبيه مغفرة تامة إتماماً للكرامة، فهذه مغفرة

---

(١) كمال الاتصال : أن ترتبط الجملة بالجملة التى قبلها كأنما أفرغا فى قالب واحد بأن تقع صفة لها أو بياناً أو تأكيداً أو بدلاً ، فلا يصح عندئذ العطف لتنزيلها مع ما قبلها منزلة الشىء الواحد . ينظر : عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٤٧/٣ ، بغية الإيضاح ٧٦/٢ ، وفن البلاغة : ص ٢٥٠

(٢) الكشاف : ٦ / ٢ .

خاصة بالنبى – ﷺ–وهى غير المغفرة الحاصلة للمجاهدين بسبب الجهاد والفتح"[١].

ويأت بعد لام التعليل الفعل المضارع مقترناً بإظهار الله – عز وجل – ورسوله – ﷺ– " لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ " وتشير مادة الفعل المضارع " يَغْفِرَ " إلى استحضار الصورة مع إفادة التجدد والاستمرار ، ففيه تأليف للقلوب على محبة غفران الذنوب، وحفز للهمم والتماس المغفرة من الإله الغافر من تلك الذنوب التى تؤرق العباد ليتلمسوا السبب إلى خالقهم – عز وجل – ليزيلها عنهم ، ويغفرها لهم ، ومدلول الغفران من مدلولات تلك المرحلة التى توحى أن المجتمع الإسلامى اطمأنت فيه النفوس لتكاليف الدين ، وقويت العقيدة ، وأصبحت بحاجة للإيناس إلى الهدوء ، والطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه.

ويظهر الله – عز وجل – مع رسوله – ﷺ– من خلال تقديم الجار والمجرور "لك" الذى يستحضر شخص الرسول ويجعله ماثلاً مخاطباً من ربه – عز وجل – الذى جاء معرفاً بالعلمية "الله " [٢] الاسم الجامع لكل صفات الجلال والإكرام ، والذى لا يطلق إلا على المعبود بحق ولا يشركه غيره فيه ، وذلك مناسب لغفران الذنوب الذى لا يكون إلا من الله ، فكان استحضار الذات العلية بالتعريف بالعلمية ، ويكمن فيها سر آخر : أنه تعالى كما استترت واحتجبت ذاته العلية عن إدراك الأبصار فإنه يستر الذنوب بمغفرته تعالى ، لرسوله الكريم – ﷺ– تكريماً وتشريفاً له ، فها هى ذنوبه رغم عصمته قد امتزجت بالغفران ، ولم يعد لها وجود ، وإذا به – ﷺ– تفيض نفسه بالشكر على ما منحه من عطاء ، ويتقدم إليه بالعبودية الحقة حباً وتعلقاً ، ويجعلها مسلكه .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ١٤٦ .

(٢) "الله " لفظ الجلالة ذهب سيبويه أنه غير مشتق ، فلا يجوز حذف الألف واللام منه وتبعه فى ذلك كثيرون وهو أحد قوليه .

وذهب أيضا على أنه مشتق ، وأن أصله " إلاه" ثم حذفوا الهمزة تخفيفاً لكثرة استعماله ، ثم أدخلت الألف واللام للتعظيم ، أو أن أصله لاه يليه إذا تستر ثم أدخلت الألف واللام عليه كأنه سبحانه يسمى بذلك لاستتاره واحتجابه عن إدراك الأبصار .

ينظر الكتاب : ١/١٠٩ ، ٣١٠ ، وإعراب القرآن وبيا

وقد أكد على ذلك – ﷺ– فى حديثه الشريف، فقد روى عن عائشة – رضى الله عنها – كان رسول الله – ﷺ– إذا صلى قام حتى تنفر رجلاه ، فقالت عائشة – رضى الله عنها – يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال – ﷺ– يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً"(١).

وجاء أسلوب القصر فى الآية الكريمة عن طريق التقديم والتأخير " ليغفر لك الله" ليلفت انتباه المتلقين إلى حقيقة غفران الذنوب ، فهى مغفرة تختص به – ﷺ– يهبها الله – عز وجل– له ، فهى غير المغفرة التى تجعل للمجاهدين بسبب الجهاد والفتح ، فهو تكريم وتشريف له

"فالمعنى أن الله جعل عند حصول هذا الفتح غفران جميع ما قد يؤاخذ الله على مثله رسله(٢) حتى لا يبقى لرسوله – ﷺ– ما يقصر به عن بلوغ نهاية الفضل بين المخلوقات "(٣).وأسند الفعل "ليغفر" إلى اسم الجلالة العلم "الله" على خلاف مقتضى الظاهر(٤)، ففيه التفات من التكلم إلى الغيبة لأن التصريح والإظهار يعمق الإحساس بالعلاقة الوثيقة التى تصل العباد بخالقهم ، وأنه لا غافر إلا الله ، فهو وحده الذى يغفر ، لأنه المستحق للعبودية قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥).

---

(١) رواه مسلم .١٤١١/٣

(٢) ومن قوله تعالى ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[سورة الأنبياء آية ٨٧]. وقول نوح عليه السلام : ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء الآيتان ٤٥ ، ٤٦]

(٣) التحرير والتنوير ٢٦ / ١٤٦.

(٤) وخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر يتحقق بتنزيل الشيء منزلة غيره . وهذا لون من ألوان الفن الراقى ، والبلاغة العالية التى تتجاوز الظاهر إلى ما وراءه وفيه نوعان : الخفاء فى الخطاب واللطافة فى الأسلوب ، والدقة فى الكلام ، والإحكام فيه "
ينظر دراسة نقدية بلاغية أ.د/ الوصيف هلال الوصيف ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٥) سورة محمد آية ١٩ .

كما يشير إلى الاهتمام بهذه المغفرة والتنوية بالمسند ؛ لأن الاسم الظاهر أشد تأثيراً فى النفس " فالالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للإشعار بأن كل واحد مما انتظم فى سلك الغاية من أفعاله – تعالى – صادر عنه تعالى من حيثية غير حيثية الأخر مترتبة على صفة من صفاته تعالى "[١].

وجعل النظم القرآنى الغفران عاماً فجئ بـ" ما" الدالة على العموم حيث قال تعالى : " مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ " فعمق خصوصية غفران الذنب للنبى – ﷺ– جعله عاماً يشمل كل الذنوب ، وجاء ذلك على طريق التصوير الكنائى[٢]، فهو كناية عن غفران كل الذنوب بدليل شمولها ما تقدم قبل البعثة ، وما عسى أن يأتى منها بعدها مما يعده النبى – ﷺ– ذنباً لشدة خشيته ، وجاء التأكيد من خلال المحسن المعنوى الطباق بين تقدم ، وتأخر ليفيد تعميم المغفرة للذنب ، ولا يقتضى أن يكون صدر منه – ﷺ– ذنب ، وإنما المقصود التشريف بهذا الحكم ، ولو لم تكن له ذنوب.

وقوله : " وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ " فتمام النعمة يتلو الغفران ، ويترتب عليه ، وهو من حسن الترتيب ، فمن أراد تمام النعمة ، فعليه بأن يجعل الغفران وسيلة إليها.

ويتجلى الفيض الإلهى على رسوله الكريم بنعمة أخرى تعطف على سابقتها " يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ " بدأ بالفعل المضارع الذى يستحضر تلك النعم ، ويجعلها متجددة مستمرة ، وهو ما يكشف عن طبيعة الإنعام مرتبطاً بضرورة الأخذ بالأسباب.

---

(١) تفسير أبى السعود ٥/ ١٠٤ .

(٢) الكناية : لفظ أطلق وأريد منه لازم معناه مع جواز إرادته معه . ينظر شروح التلخيص ٢٢٧/٤،وسر الفصاحة ص ١٩٢ .

وقد أجمع البلاغيون على أن الكناية أبلغ من الإفصاح " أما الكناية فإن السبب أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه ، أن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد فى وجودها آكد وأبلغ فى الدعوى من أن تجئ إليها فتثبتها ساذجاً غفلاً . ينظر دلائل الإعجاز ص ٧٢.

ونعم الله على رسوله -ﷺ- كثيرة ، ولكن جاء التعبير على خلاف مقتضى الظاهر بوضع الإفراد " نعمته" موضع الجمع "نعمة" لغرضين بلاغيين :

الأول : الإشارة إلى أهمية صلح الحديبية وأنه مصدر كل النعم.

الثانى : جعل النعم كنفس واحدة لشدة تماسكها واتصالها ، فهى ليست منفصلة بعضها عن بعض ، وليس بينهم تمايز أو افتراق " بل جعلهم كذات واحدة فى الاجتماع والترافد(١).

وجاء التصوير الاستعارى موضحاً تمام نعمته حيث شبه النعم بالشىء المادى المحسوس الذى يستشعر فيه النقصان ، وحذفه ورمز إليه بشىء من لوازمه ، وهو التمام على سبيل الاستعارة المكنية.

وبلاغتها : جعل النبى -ﷺ- مرتبطاً بخالقه عالماً بفيض عطائه عليه، وينتظر استكمالها ، فقد أخذ خصوصية له بغفران ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر ، لكنه ينتظر ما يعود على أمته ، يعلم الله – عز وجل- ما فى نفس نبيه -ﷺ- فيلفى إليه بالطمأنينة .

إنه حوار غيبى يدور بين الله – عز وجل – وبين ما يضمره – ﷺ- فى نفسه من انتظار عطاء الله لأمته ، وقد تحققت نعم ربه عليه بإسلام قبيلته قريش ، وكسر شوكة المنافقين واليهود ، وانتشار الدين الإسلامى فى ربوع الأرض ، وغيرها من النعم التى تحققت له – ﷺ-.

كما جاء التصوير الاستعارى ليظهر هذه النعم عن طريق الاستعارة التبعية فى الحرف "عليك" لينزل الاستعلاء المعنوى منزلة الاستعلاء الحسى ، ليظهر النعم وقد أحاطت بالنبى – ﷺ- وتمكنت حتى أصبحت تعلوه .

وفى الآية إيجاز بالقصر حيث تحتوى الآية الكريمة على المعانى الكثيرة فى قالب اللفظ اليسير ، وفى هذا تحفيز لأذهان المتلقين لالتماس تلك المعانى

---

(١) فن البلاغة ـــ.د/ عبد القادر حسين ص ٣٠١ يقول أبو عبيدة " والعرب تلفظ بلفظ الواحد ، والمعنى يقع على الجميع : ومنه قول الشاعر :

كلوا فى بعض بَطْنكم تعفوا فإن زمانكم زمن خميص .

أراد بطونكم – ينظر مجاز القرآن ١/ ١٣١ .

لإدراك الجزئيات والتفصيلات ، فيعيش القارئ مع القرآن الكريم وهو فى تدبر وتفكر متفاعلاً مع كل كلمة ينبض بها النص الكريم .

ويظهر الله – عز وجل – ورسوله– ﷺ– فى الجملة بإسناد النعم إلى الله عن طريق ضمير الغيبة، ورسوله بضمير الخطاب ؛ لأن هذه النعم تعود على أمة الرسول – ﷺ–.

وهذا ما أضمره – ﷺ– فى نفسه ، فناسبه ضمير الغيبة عائداً على المنعم – سبحانه – وضمير الخطاب ليشعر بقربه – ﷺ– من خالقه وارتباطه به .

وتظهر الآية عطاء آخر من الله – عز وجل – لرسوله الكريم عبر الواو العاطفة ، فهو فى ظاهره خاص به– ﷺ– ولكنه يكون لأمته ضمناً إذا نهجت نهج نبيها وهو عطاء يطلب من أمته مع كل صلاة ﴿إهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾[١].

فقوله : " وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا " جاء الفعل المضارع مع ضمير الخطاب "يهديك" لأن الهداية متجددة مستمرة ، فهى ثابتة له – ﷺ– من وقت البعثة ، ولكن تجددها المستمر يجعله –ﷺ– متعلقاً بخالقه فى كل أفعاله وسلوكه ، وجعلت الهداية مرتبطة به – ﷺ– عبر كاف الخطاب لتستحضر شخص الرسول ليجمع بين الثبات على الهداية زيادتها مع استحضار صورتها.

وفى تنكير لفظ "صراطاً "ليوحى بتعظيمه ، وزاد على ذلك وصفه بالمستقيم الذى لا اعوجاج فيه .

وفى إيثار لفظ الصراط على الطريق .

لأن الصراط هو الطريق المستقيم[٢]، كما أنه هو الطريق المستسهل[٣]. والطريق هو السبيل الذى يطرق بالأرجل [٤].

---

(١) سورة الفاتحة آية ٦.
(٢) المفردات ص ٢٨٠ لسان العرب ٤/ ٢٤٣٢، مادة صرط .
(٣) المفردات ص ٢٣٠ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٠٣ .

وقد ورد ذكر الصراط فى القرآن الكريم فى ثلاث وأربعين آية . وغالباً ما يوصف بالاستقامة .

قال تعالى : ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة آل عمران آية ١٠١)].

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة مريم آية ٣٦].

أما لفظ الطريق فلم يرد إلا أربع مرات منه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا ﴾ [سورة النساء الآيتان ١٦٨، ١٦٩].

فلفظ الصراط أعم من لفظ الطريق ؛ فهو يشمل المنهج والطريق ويستعمل أما لفظ الطريق فلا يستعمل إلا فيما يطرق بالأرجل، ويستعمل غالباً فى الشر ، وإذا أريد به الخير جاء مقترناً بوصف أو إضافة كما فى قوله تعالى:﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الأحقاف : آية ٣٠].

وبذلك تتجلى دقة النظم القرآنى فى تخير مفرداته ، ويؤكد على أنه يوجد بين مفرداته فروق دقيقة فى لغة القرآن . لأن لكل لفظ قرآنى خاصية فريدة فظاهرة الترادف اللغوى تكاد تكون معدومة .

فاستعمال الكلمة فى مكانها المناسب هو أول خطوة فى تكوين الجملة بأسلوب بلاغى ، فالتنسيق بين العبارة وأخواتها داخل الصورة العامة فى القرآن الكريم يأتى من خلال الألفاظ ، والتعبير عنها فى موضعها المناسب ؛ لأن الكلمات ليست على حد واحد فى أداء المعانى المرادة منها ، بل هى تختلف فيما بينها فصاحة وأداء ،

فحين ينظر المرء فى الألفاظ المتقاربة فى أداء المعانى يظن أو يتوهم أنها مترادفة، ولكن لكل لفظ سماته المتميزة ، وخصائصه الفارقة [١].

ويسمى هذا فى البلاغة ائتلاف اللفظ مع المعنى ، ومن يقرأ القرآن الكريم بتدبر وإمعان وكان ممن أوتوا حظاً من البلاغة والبيان ، أدرك أن ألفاظه مؤتلفة مع معانيه ائتلافاً عجيباً معجزاً للإنس والجن ، وأدرك أن هذا الائتلاف يشتمل على حكمة وأسرار تذهل العقول وتأخذ بمجامع القلوب[٢].

والمراد بالصراط المستقيم : الدين القويم ، ولكنه عبر عن هذا المعنى عن طريق التصوير الاستعارى حيث شبه الدين القويم بالصراط المستقيم بجامع الوصول إلى البغية ، ثم استعير الصراط للطريق على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، ليجعل من تعاليم الدين الإسلامى غايات وأهداف يتحراها المسلم لتكون سبيلاً لبلوغه الطريق القويم الموصل إلى جنات النعيم .

إن هذه الكلمة القرآنية بظلها وجرسها وإيحائها هى وحدها من بين مفردات اللغة القادرة على تصوير الدين وإبرازه فى صورة حية متحركة ملموسة ، فالصياغة القرآنية لها جمالها وقوة تأثيرها فى نفس المتلقى ليمضى إلى تعاليم دينه مدركاً حقيقته راجياً من ربه هدايته إليه.

وفى وصف الصراط بالمستقيم ليكون تعريضاً بذم كل سبيل يبعد عن شرع الله ، فكلها لا تظفر بهذا الوصف ، بل تجعل المرء يتخبط فى ظلمات الجهل والضلال.

قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [٣].

"وقد يرد تساؤل " ما العلاقة بين فتح مكة ، وهداية الله لرسوله" ؟ [٤].

---

(١) مفاد بتصرف من المزهر فى علوم اللغة للسيوطى ٤٠٢/٢ ، والإعجاز البيانى للقرآن ص١٩٦ .

(٢) ينظر من أسرار البلاغة فى القرآن أ.د/ محمود السيد شيخون صس ١٢٩ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٥٣ .

(٤) التوجيه اللغوى لمشكل القرآن الكريم د/مجدي محمد حسين ص ٧٢٨(دار حورس الدولية).

الإجابة : "إن أصل الاستقامة وإن كان حاصلاً قبل الفتح لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبل الحق ، واستقامة مناهجه مالم يكن حاصلاً من قبل"(١).

ويشرع النظم القرآنى لتوضيح نعمة أخرى : ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ فترتبط بسابقتها بالواو العاطفة التى تشير إلى تعدد مظاهر نعمه- عز وجل – ولم ترتبط الجملة بسابقتها عبر الواو العاطفة فحسب، بل جاء البناء التركيبى لها ليجعلها وثيقة الارتباط بما قبلها ، فالفعل المضارع مع كاف الخطاب "ينصرك" ليجعل النصر مرتبطاً بالنبى – ﷺ- متجاوزاً الاستعلاء والغلبة ليصل إلى الغفران وتمام النعمة ، فهو نصر متجدد مستمر غير الفتح الذى ذكر فى بداية السورة، لأنه جعل له علة بدون قتال، وهو ما يتصل بانتشار الدين الإسلامى، ومنه ما تحقق فى حياته – ﷺ- ومنه ما تحقق بعد وفاته ، فكل نصر يتحقق للمسلمين من بعده فهو يرجع إليه ، ويتصل به ذلك الاتصال ؛ لذا جاء إظهار قيمة النصر ، وبيان علو منزلته من خلال تعريف المسند إليه بالعلمية عدولاً عن الإضمار إلى الإظهار "وينصرك الله" اهتماماً بهذا النصر، وإشارة إلى أن النصر لا يكون إلا من واهبه وهو الله – عز وجل – ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (٢).

وفى التأكيد على أهمية هذا النصر جاء تكرار مادته فقال : "نَصْرًا عَزِيزًا "، فجاء التنكير مع وصفه بأنه عزيز ، هذه الصيغة التى تدل بذاتها على التأكيد والمبالغة ، لتعلى من شأن هذا النصر ، فهو نصر اختص الله به نبيه – ﷺ- فيه العزة والمنعة .

والعزيز هو صاحب النصر وهو النبى – ﷺ- فهو المقصود ، ولكن فى وصف النصر بالعزيز مجاز عقلى ليشير إلى دلالة خفية لطيفة، فإذا كانت هذه منزلة النصر ، فأى منزلة ينالها صاحب النصر ؟ فقد ترك للقارئ تخيل تلك المنزلة ، وقد نالها صاحبها من خالقه الذى قال فى كتابه الكريم : ﴿الَّذِينَ

(١) الفتوحات الإلهية ٤/ ١٥٦.
(٢) سورة آل عمران آية ١٢٦.

أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١).

إن افتتاح السورة بهذا النظم المعجز تتجلى فيه براعة الاستهلال(٢)"وهذا دليل على جودة البيان ، وبلوغ المعانى إلى الأذهان؛ فإنه أول شىء يدخل الأذن ، وأول معنى يصل إلى القلب ، وأول ميدان يجول فيه تدبر العقل "(٣).

فقد أوضحت السورة فى بدايتها المقصود منها ، فموضوعها يدور حول صلح الحديبية وأثره على النبى- ﷺ- ومن معه من المؤمنين، وكان النظم القرآنى المعجز دالاً على ذلك حيث جاءت آياتها الثلاث فى قالب الأسلوب الخبرى الذى يكسب الدلالة الجزئية فى الآيات تقريراً وتأكيداً ، وتأت الصيغ الزمنية للأفعال لتكشف عن طبيعة مكوناتها الدلالية ، فجاء الفعل الماضى فى افتتاح السورة " فتحنا" ليحقق الموقف الثابت ، أما الدلالة المتكررة المتجددة، فجاءت عبر الفعل المضارع " يغفر - يتم - يهدى - ينصر "، وقد أشار البلاغيون على قدرته على إثارة المعنى ، واستحضار صورته لدى السامع حتى كأنه يشاهدها.

وفى عدول القرآن الكريم من صيغة الماضى إلى المضارع يتحقق الالتفات الزمنى (٤) الذى يجعل المتلقى مرتبطاً بالنص القرآنى للسورة متعمقاً فى ثناياها

---

(١) سورة الحج آية ٤٠ .

(٢) وقد افتتح الله سبحانه وتعالى سورة القرآن الكريم بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شىء من السور عنها هى :
١- الثناء . ٢- حروف التهجى . ٣- النداء . ٤- الجمل الخبرية . ٥- القسم . ٦- الشرط . ٧- الأمر . ٨- الاستفهام. ٩- الدعاء . ١٠- التعليل .
ينظر حسن الإبتاء فى سورة القرآن الكريم ص ٧ .

(٣) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ص ٢٥٦ ، نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ٧/ ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٤) قال عنه ابن الأثير : " اعلم أيها المتوشح لمعرفة البيان أن العدول من صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لوقوع خصوصية اقتضت ذلك وهو لا يتوخاه فى كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذى اطلع على أسرارها وفتش عن دفائنها ، ولا تجد ذلك فى كل كلام ، فإنه من أشكال ضروب علم البيان وأدقها فهماً وأغمضها طريقاً ".

ليقف على إبراز نظمها العجيب ، ومثلت الواو العاطفة رابطا لفظياً جامعاً بين الآيات .

وفى تحقيق إظهار الله مع رسوله - ﷺ- تنوعت طرائق التعبير حيث عبر عن الذات الإلهية بالإظهار والإضمار فكان الإضمار فى بداية السورة ضمير المتكلم "فتحنا" ، والتصريح بالاسم الظاهر " لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ " وضمير الغائب بارزاً متصلاً ومستتراً " وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا " والتصريح بالاسم الظاهر " وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا " ليشير إلى دلالة خفية وهى : أن الله – عز وجل – يسبغ عطاياه ونعمه على نبيه - ﷺ- فى كل حال، وفى دار الدنيا والآخرة.

إن ختام الآيات يعطى تناغماً موسيقياً جاء من البناء التركيبى مع البناء الصوتى ، حيث جاء التنكير مع الوصف " فَتْحًا مُّبِينًا ، صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ، نَصْرًا عَزِيزًا "ليحقق الغرض الدلالى من إظهار التعظيم ، وإعلاء المكانة والشأن ، والذى تأكد من خلال المستوى الصوتى الذى يتركه ألف المد ، والذى يكسب اللفظ رحابة واتساعاً.

***

المثل السائر : ٢/ ١٢. .

المبحث الثاني
المؤمنون والفتح المبين

قال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا * وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(١).

يخبر الله – عز وجل – عن أثر الفتح على المؤمنين بعد أن ذكر أثره على النبى– ﷺ– فهم قد خرجوا من المدينة بنية آداء العمرة لا ينوون قتالاً ، وإذا بموقف قريش يمنعهم من آدائها، بل وعقد صلحاً به شروط فى ظاهرها إجحاف لهم ، ولكن فى باطنها كل الخير لهم .

إنها قلوب امتلأت بالضيق ، وكادت أن تزيغ ، فها هو عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – جاء إلى النبى – ﷺ– وقال : ألست نبى الله حقا؟ قال : بلى : قال ألسنا على حق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى : قال فلما نعط الدنية فى ديننا إذن ؟ قال : إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى "(٢).

ومن نصر الله – عز وجل – لرسوله أنزل الطمأنينة والثبات فى قلوب أصحاب صلح الحديبية من المؤمنين ليكون زيادة فى إيمانهم ، ويقينا فى تحقيق نصر الله لهم .

فالله – عز وجل – له كل جنود السماوات والأرض من الملائكة والجن ، والصواعق ، والزلازل وغيرها ... وهى لا تعد ولا تحصى يسلّطها الله على من يشاء كما فعل بالأمم السابقة ، ولكن الله – عز وجل – شرع لهذه الأمة أن

---

(١) سورة الفتح الآيات ٤ : ٧.
(٢) صحيح البخارى١١٦٢/٣ السيرة النبوية لابن هشام٢٣٦/٢، وفقه السيرة النبوية ص٣٣٥ .

تكون جنداً من جنود الله قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾[١] فشرع لهم الجهاد الذى يحقق ذلك، فهو عليم بخلقه ، حكيم فى تدبيره وتقديره .

إن الآية ترتبط بسابقتها فبينهما اتحاد واتصال بحيث نزلتا كالشىء الواحد ، ولا يعطف الشىء على نفسه ، فهى بدل اشتمال من مضمون جملة : ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ فالنصر يشتمل على إظهار نعمة الفتح على المؤمنين ، ومن هذه النعم إنزال السكينة فى قلوبهم ، وبدأ توجيه الأنظار إلى تلك النعمة حيث عرف المسند إليه بضمير الغائب "هو" الذى ينشط الأذهان ، ويلفت الانتباه إلى ضرورة استحضار ما سبق من هذه الآية ، للوقوف على مضمونها التركيبى ، وهو ما يحقق الترابط بين الآيات . وجاء تعريف المسند معرفاً بالموصولية "الذى"لإفادة التعظيم وليمهد لجملة الصلة ، وفيه تشويق وتنبيه للأذهان لمعرفة مضمونها فالنفوس متعلقة متشوقة لمعرفتها ، وهى شديدة الصلة بالموصول لا تنفك عنه، فالمسند إليه عرف بالضمير والمسند عرف بالموصولية ، وقد صدرت بهما الآية ، ليدل على أن الله وحده هو واهب هذه السكينة التى لا يعرف حقيقتها إلا من له القدرة على تذوق طعم هذا اللفظ من خلال تركيبه " أَنزَلَ السَّكِينَةَ " فضلا عما تضمنته العبارة من تعظيم الفعل "أنزل" له بلاغته من حيث زمنه ومعناه :

* فمن حيث زمنه الماضى : فقد دل بصيغته الزمنية على تأكيد تحقيق الوقوع[٢] وثبوت السكينة لهم ، وأنها قد حدثت بالفعل ، وهذا يضاعف الطمأنينة والثبات بوجودها .

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٢.

(٢) فالقرآن ليستعمل صيغة الماضى التى تستعمل مع حدث وقع فى زمن مضى لا ما سيقع بعد، لتأكيد تحقق الوقوع ، وصدق الوعد فيه بإخراج ما سيقع فى صيغة ما هو كائن واقع " وأغلب ما ورد فى ذلك فى كتاب الله كان بشأن الساعة والحشر والثواب والعقاب والنعيم والعذاب الذى استأثر الله بعلمه .

* من حيث المعنى : فهو يشير إلى أن تلك السكينة فى مكان مرتفع لا يعرفه الناس ، والله واهبها ومنزلها ، وبذلك تكتسب منزلة رفيعة وتشريفاً .

"فإن كل ما يعطى من الله يسمى إنزالاً ليتحقق معنى العلو المطلق غير المقيد بجهة من الجهات لله – سبحانه – فإنه هو العلى القاهر فوق الجميع"(١).

فمعنى إنزالها : وضع أسبابها فى نفوسهم ، ففى الجملة تصوير للسكينة عن طريق الاستعارة المكنية حيث شبه السكينة بالشىء المادى الذى ينزل ويلقى فى قلوب المؤمنين ، وهذه صورة تخيلية تنقل القارئ إلى تصور ما حدث من المؤمنين عقب صلح الحديبية ، وكيف تحول موقفهم إلى الرضا وقبول الأمر .

والمراد بها " السكون والطمأنينة بسبب الصلح والأمن، ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، والهدنة غب القتال فيزدادوا يقينا إلى يقينهم، أو أنزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد – عليه الصلاة والسلام – من الشرائع "(٢).

وذكر موضع السكينة تصريحاً فقال " فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ " ليشير إلى أن السكينة لها شرط جوهرى وهو الإيمان فهى مرتبطة به، وإذا تحقق هذا فالقلوب جعلت كالظروف ، والسكينة ظرف ، فشبه تمكن السكينة فى قلوبهم بوضع الظرف بالمظروف عبر الحرف "فى" الذى يدل أصل معناه على الظرفية ، فهو تصوير عن طريق الاستعارة التبعية.

ينظر المعانى فى ظلال النظم القرآنى ١/ ٢٢٨، ومن قوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النمل آية ١].

وقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [سورة الزمر آية ٦٨].

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٧/ ٢١١ مطبعة الهيئة العربية ١٩٧٣م .

(٢) الكشاف : ٦/ ٣.

وبلاغتها : الإشارة إلى ثبات السكينة وقرارها فى محلها الذى هو مناط الإدراك والتحرك ، وهو القلب الذى هو وسيلة للتدبر قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (١) وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (٢).

– فالله – عز وجل – لا يحفظ قلوب المؤمنين من العلل والأمراض فحسب ، وإنما يملؤها سكينة ينزلها عليهم من عليائه لتستقر فى قلوبهم استقراراً ، وتتمكن منهم ، فيكون مسلكهم نابعاً منها.

ولفظ المؤمنون معرف بالألف واللام(٣)لقصد العهد فالمقصود المؤمنون المعهدون فى صلح الحديبية ، ليبين على حقيقة مؤداها : أن كل من يمتلئ قلبه بالإيمان فسوف يُنعم الله عليه بهذه النعمة التى كانت خاصة للمؤمنين من أهل الحديبية .

– ويظهر الله – عز وجل – علة إنزال السكينة قال ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ لام التعليل دخلت على الفعل المضارع فجعل هذا "الإزدياد كالعلة لإنزال السكينة فى قلوبهم ، لأن الله علم أن السكينة إذا حصلت فى قلوبهم رسخ إيمانهم ، فعومل المعلوم حصوله من الفعل معاملة العلة وأدخل عليه حرف التعليل "(٤).

فمن رحمة الله – عز وجل – أن جعل السكينة سبباً فى زيادة الإيمان وتجدده مع استمراره .

وجاء البناء التركيبى مؤكداً لهذا المعنى حيث عبر بالفعل المضارع " يزدادوا" الذى يعطى الإيمان تجدداً واستمراراً بما يحقق زيادته ، بل إن الفعل المضارع يشير إلى لطيفة بلاغية أخرى . ففيه استحضار لمشهد المؤمنين فى

---

(١) سورة محمد آية ٢٤.
(٢) سورة الحج آية ٤٦.
(٣) اختلف فى التعريف بها أهو بأل أم باللام.
ذهب الخليل أن التعريف بأل برمتها ، وذهب سيبويه إلا أن التعريف بـــ " اللام" فقط. ينظر : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١١٧/١ وتبع سيبويه فى قوله السكاكى فى المفتاح ص ١٨٤ والخطيب فى الإيضاح ٢٢/١.
(٤) التحرير والتنوير ٢٦/ ١٥٠ .

الحديبيـة وقـد شـعروا بنعمـة الله لهـم فـور عقـد الصـلح حيـث زاد الإيمـان فـى نفوسهم، ومازال المشهد مستحضراً، فها هو الإيمان وهو الشىء المعنوى يصور بالشىء المادى الذى يمكن إدراكه بالحواس ، وهو فى تزايد مستمر .

إنها صورة تخيلية تجعل القارئ يعيش مع النص القرآنى يتذوق حلاوة الإيمان الذى يصاحب إيماناً سابقاً ، فقد جعلت قوة الإيمان بمنزلة إيمان آخر دخل الإيمان فزاده قوة ، فإن هذا المعنى جاء من تعلق الإيمان بالظرف "مع" حيث قال " مَّعَ إِيمَانِهِمْ " وفى هذا خير عظيم للمؤمنين ، وجاء ذلك عن طريق الاستعارة التبعية والتى تصور الإيمان وهو يصاحب لإيمان آخر من جنسه ، فإذا بالإيمان الأول يقوى ويزد وقيل معناه خشية مع خشيتهم ، وقيل يقينا مع يقينهم" (١).

ويعطف على الآية قوله : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ . . . ﴾ للتوسط بين الكمالين حيث اتفقتا الجملتان فى الخبرية لفظاً ومعنى مع وجود الجامع ، وهو بذلك يشير إلى أن المؤمنين من جنود الله ، وأن إنزال السكينة فى قلوبهم تقوية لعزائمهم ، وهذا التخصيص بهم بالذكر قبل العموم فى قوله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . . . ﴾ للتنويه بشأنهم ، ورفعة لمنزلتهم .

وتعريف المسند بالعلمية مع تقديمه على المسند إليه : " وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ " لتربية المهابة فى نفوس المؤمنين ، فلو شاء الله – عز وجل – لنصر المؤمنين على الكافرين بدون قتال فجنوده كثيرة فى السموات والأرض ، وقد جاء لفظ جنود جمعاً لتدلل على الكثرة والتنوع ، فمن جنود السماوات الملائكة الذين نزلوا يوم بدر والمطر الذى ثبت الله به الأقدام يوم بدر ، والريح الذى أرسلت على العدو يوم الأحزاب .

ومن جنود الأرض: جيوش المؤمنين، والقبائل التى انضمت للقتال معهم، وأطلق لفظ جنود باعتبار ما يعرفه المسلمون من تعدد الجيش حيث يتألف من جنود فى المقدمة ، والميمنة ، والميسرة ، والقلب ...

---

(١) الكشاف : ٣/٦.

وجمع السماوات؛ لأن المقصود بها ذوات السماوات بأعدادها الكثيرة ، فكل واحدة منها مختصة بعالم الملائكة يخالف الآخر ، فلهذا كانت مجموعة .

وإفراد لفظ الأرض لاستثقال الجمع فلو جمعت لقال الآراض ، أروض، والنظم القرآنى يتخير الأخف على اللسان، والأوقع فى السمع، كما أن الجمع يفيد التعظيم، والأرض هى دار الدنيا ، فمن أجل تقليل شأنها كان الإفراد مناسباً لهذا الغرض، كما قدمت السموات لشرفها فى الملكوت العلوى الذى فيه الأسرار والمغيبات التى لا يطلع عليها [١].

وأكد الله – عز وجل – هذا المعنى عن طريق القصر حيث قصر ملكية جنود السموات والأرض على الله – عزوجل – قصراً حقيقياً تحقيقياً قصر صفة على موصوف ، فهو وحده من يملكهم ، ويأتمرون بأمره ، فهو إطلاق لسلطان الله وعمومه ، وقد أكد هذا المعنى الطباق بين السماوات والأرض حتى لا يتوهم أعداء الإسلام أنهم بما يملكون فى الأرض من أدوات للحرب والقتال لديهم المقدرة على هزيمة المسلمين ، فأمام الله – عز وجل – لا يعتد بأى قوة ، وبأى عداد ، إن لله الغلبة عليهم ، فهو يملك من الجنود ما تقف أمام ذلك كله ، وأول جنود تواجه الأعداء هم المؤمنون أنفسهم الذين يتمكن الإيمان واليقين بنصر الله لهم فى قلوبهم ،وقد أخذوا بجميع أسباب النصر.

وتختتم الآية بقوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[٢] فالواو تربط لفظياً الجملة بسابقتها لما بينهما من التوسط بين الكمالين ، والتعبير بالفعل "كان" ليحقق الوقوع ويؤكده ، فهو كان ولازال الله متصفاً بهذه الصفات .

وتعريف المسند إليه بالعلمية "الله"خلاف مقتضى الظاهر لتربية المهابة فى النفوس .

---

(١) مفاد بتصرف من معترك الأقران ٥٩٥/٣ ، ٥٩٦ والإتقان فى علوم القرآن ٢٩٩/٢ ، الطراز للعلوى ٣/ ٤٥ وصفاء الكلمة ص ١٢١ .

(٢) أورد فى القرآن الكريم فى عجز الآية فى ستة مواضع :النساء آية ١٧، ٩٢، ١٠٤، ١١١، ١٧٠ ، الفتح آية ٤ .
ينظر :موسوعة الجامع المبين لمتشابهات القرآن القيم ص ٤٦٨ .

وجاء المسند "عليماً حكيماً" على صيغة المبالغة فعيل فهو عليم بأسباب النصر والفتح التى يبث من خلالها الطمأنينة فى قلوب المؤمنين بعد القلق والخوف ، وإنه حكيم يضع مقتضيات علمه فى مواضعها الملائمة وأوقاتها المناسبة .

والجملة تذييل مقرر لمضمون الكلام السابق ليؤكد على نصر الله – عز وجل – لنبيه ودينه حتى وإن تأخر النصر قليلاً فإن هذا ما تقتضيه الحكمة الإلهية .

والمتأمل فى الآية يجد أن ختامها مناسب مع أولها ، وهو ما ي

سمى بتشابه الأطراف ، وهو من النوع الظاهر الجلى " فالله – عز وجل – أنزل السكينة لغاية ذكرها فى الآية " لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ " وكل هذا يجرى وفق علمه المصحوب بحكمته – سبحانه وتعالى – .

وبعد أن ذكر الله أثر الفتح على المؤمنين فى الدنيا شرع فى ذكر أثره عليهم فى الآخرة ، ليكتمل لهم خيرى الدنيا والآخرة ، قال تعالى: ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

بين الله – عز وجل – نعمه على المؤمنين فى الدنيا فى الآية السابقة التى جعلها توطئة لهذه الآية ، فهم اختصوا بنعمة إنزال السكينة في قلوبهم ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، ليكون هذا سببا فى إظهار نعمه عليهم فى الآخرة.

فالآية فصلت عن سابقتها لما بنيها من اتصال واتحاد وهو ما يسميه البلاغيون كمال الاتصال، فهى بدل اشتمال من قوله " لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ " لأن إدخال المؤمنين والمؤمنات الجنة مستلزم لزيادة الإيمان ومشتمل عليه .

وصدرت لام التعليل الآية مع الفعل المضارع " لِيُدْخِلَ " لتظهر رحمة الله بعباده وكرمه وعطائه لهم ، واللام تلفت انتباه المتلقى لمعرفة ما أعده الله للمؤمنين فى الآخرة ، وهذا العطاء غيبى عبر عنه النظم القرآنى بما يشير إلى

استحضار صورته فى ذهن القارئ ، فكان الفعل المضارع مستحضراً لهذه الصورة ، كما يوضح على تحققها مستقبلاً من خلال دلالة الصياغة ، فالمتلقى يستحضر صورة المؤمنين والمؤمنات وهم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار فى هيئة مستديمة متجددة ، وكل هذا يفصح عن المنزلة العالية التى أعدها الله للمؤمنين الذين كانوا فى صلح الحديبية .

وحذف المسند إليه والتقدير "ليدخل الله ..." ليحيل القارئ إلى الارتباط بنهاية الآية السابقة : ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ففى الآية إيجاز بحذف المسند إليه ، لأن المسند المذكور لا ينصرف إلا له تعالى .

وقد ذكر البلاغيون أن سر الحذف فى مثل هذه الآية هو تعينه للمسند المذكور ، وفى الآية نجد أنه متعين حقيقة فدخول المؤمنين والمؤمنات وتكفير سيئاتهم لا يكون إلا له – سبحانه –

ووقع الإدخال على "المؤمنين والمؤمنات" حيث بدأ بالمؤمنين اهتماماً بهم فهم الذين شاركوا فعلياً فى الجهاد والفتح ، وصرح بذكر "المؤمنات" معطوفاً على المؤمنين ، ليشير إلى أن الحكم يشمل الذكور والإناث ، فلا فرق فى الجزاء على العمل بينهما ، وهذا هو العدل الإلهى.

كما أن فى ذكر "المؤمنات" "احتراس حسن"[١] حتى لا يتوهم اختصاص الأمر بالرجال دون النساء ، لأن الآيات السابقة تتحدث عن الفتح وعلته ، والنصر ، والجنود وكلها من ملابسات الذكور.

كما يشير بذلك إلى دور النساء فى الدعوة الإسلامية ، وضرورة المشاركة مع الرجال فى المعارك والقتال بما يتناسب مع طبيعتهن، وما تتحمله المرأة من

---

(١) سماه قدامة التتميم وصار يعرف عند المتأخرين باسم التكميل أو الاحتراس . ينظر الصبغ البديعى ص ١٥٠ . فالتكميل ويسمى الاحتراس : أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم . ينظر: الإيضاح ص ٢٣٥ تحقيق د/ عبد القادر حسين.

مسئولية إذا فقدت زوجها فى المعركة، فكل هذا يجعل للمرأة دوراً بارزاً فى الدعوة الإسلامية لا يقل أهمية عن دور الرجل.

ومن الممكن أن يكون ذكر "المؤمنات" من عطف الخاص على العام اهتماماً بما تقوم به المرأة، حيث إنها ذكرت مع المؤمنين على سبيل التغليب ، ثم صرح بلفظها لأهمية ما تقوم به من مسئولية سواء فى مشاركتها للرجال فى المعارك أو تحمل عبء بيتها وأولادها فى غياب زوجها أثناء القتال.

ويتشوق المتلقى لمعرفة مكان الدخول فإذا به " جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ " سميت الجنة إما تشبيهاً بالجنة وهو البستان فى الأرض ، وإن كان بينها فرق شاسع ، وإما لستره – سبحانه – نعيمها ، والذى أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[١].

وجمع لفظ "جنات" مع تنكيره يوحى بالكثرة مع التعظيم ، "فالجنة سبع جنات الفردوس ، وعدن ، والنعيم ، ودار الخلد ، والمأوى، دار السلام ، وعليين "[٢] وكثرتها "يشير إلى كثرة النعيم المعد فيها للمتقين"[٣].

إن المؤمنين والمؤمنات اشتركوا فى الإدخال فى جنات الله ، ولكن العدل الإلهى ، وتفضل الله على عباده يظهر من خلال جمع لفظ "الجنات" فهى متنوعة يدخلها كل مؤمن ومؤمنة حسب مرتبته فى الإيمان ، فكل منهم يدخل الجنة التى تتناسب مع درجة إيمانه، وهكذا كان التعبير بلفظ "جنات" يدل دلالة قوية على دقة إعجاز النظم القرآنى.

وجاء وصف الجنات بقوله : " تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ " عبر بالفعل المضارع ليستحضر صورة البساتين والأنهار تجرى من تحتها ، كما يضفى على الجملة بلاغة حيث إنها توحى بأن الجريان متواصل لا انقطاع فيه ، وأن ماءها لا يجرى إليها من موضع آخر ، وليس من منبع آخر على نحو ما هو موجود فى

---

(١) سورة الفرقان آية ٧٤ .
(٢) المفردات ص ٩٨.
(٣) من بلاغة النظم القرآنى أ.د/ بسيونى فيود ص ٢٨ ، ٢٩.

أنهار الدنيا ، فقد أوضحت هذه الجملة أن من نعيم الله على عباده فى الآخرة أن الأنهار تجرى من تحتها الجنات ، فالمؤمن يجدها فى المكان الذى يوجد فيه عند احتياجه إليها ، وليس كالشأن فى الدنيا يذهب إليها حينما يطلبها.

وفى تقديم الجار والمجرور " مِن تَحْتِهَا " للفت الانتباه لهذه الصورة الرائعة المتخيلة للجنات حيث حدد أحد عناصرها ، وهو التحديد المكانى ، فمعلوم أن الجنة فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

وفى تعريف "الأنهار" مع جمعها استدعاء صنوف الأنهار التى ذكرت فى سورة محمد ليظهر الترابط والتلاحم بين سور القرآن الكريم.

قال تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ﴾ [سورة محمد / ١٥].

وذكر نعمة أخرى لهم فقال : " وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ " وعطفها على سابقتها لبيان تعدد نعم الله عليهم ، وفيه ذكر للأثر المترتب على الإيمان .

وعبر بقوله : " يكفر" دون "يمحو" حيث أراد الله أن يبين أن إيمان المؤمنين والمؤمنات سبب فى ستر سيئاتهم ، فكأنه وضع عليها فسترها .

قال الإمام الرازى [١]: " محو الشىء لا يعنى إثبات أمر آخر مكانه بخلاف ستره ، فإنه يعنى تغطيته لشىء أحسن منه حتى لا يظهر المستور ، كما يريد ستر ثوب بال فإنه لا يستره بمثله ، بل يستره بثوب نفيس نظيف ، ولا سيما الملك الجواد إذا ستر على عبد من عبيده ثوبه البالى أمر بإحضار ثوب من الجنس الغالى لا يحصل إلا بالثمن الغالى".

(١) التفسير الكبير ٢٨/ ٣٥.

ففى الجملة يظهر فن التلاؤم والذى أشار الرمانى إلى بلاغته ، حيث قال :" الفائدة فى التلاؤم حسن الكلام فى السمع ، وسهولته فى التلفظ ، وتقبل المعنى له فى النفس لما يرد عليها من حسن الصورة"(١).

وفى لفظ "يكفر" تصوير عن طريق الاستعارة المكنية حيث شبه السيئات وهى أمر معنوى بالشىء الحسى الذى يتحرك ويستر ، وحذفه ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو كلمة "يكفر" بمعنى يستر.

وبذلك يحرك الأذهان نحو المعنى ، ويضفى على الكلام حسناً وبهاء بفضل ما يكتسبه من التخييل.

وقدم الحار والمجرور "عنهم" اهتماماً بهم ، كما يظهر السيئات وهى الحمل الثقيل وقد ستره الله – عز وجل – لهؤلاء المؤمنين والمؤمنات دون غيرهم .

وفى ذكر تكفير السيئات بعد دخول الجنة ، والأصل أن تكفير السيئات يكون قبل دخول الجنة وبلاغة النظم تظهر من وجهين :

الأول : أن الله – عز وجل – يغطى سيئاتهم ويسترها عنهم فلا يتذكرونها فى الآخرة حتى ينعموا فى الجنة نعيماً لا يشوبه أى تكدير .

الثانى : أن يكون فى السياق تقديم وتأخير حيث قدم دخول الجنة على تكفير السيئات" للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى والمقصد الأسنى المطلوب (٢).

وختم الآية بقوله : " وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيمًا " ،

تأت الجملة معطوفة على سابقتها لتربط بها ، والتعبير بالفعل الماضى يحقق الوقوع ويؤكده ، وتعريف المسند إليه باسم الإشارة "ذلك" الموضوع للبعيد ، وفيه تنزيل للقريب منزلة البعيد ؛ لأن المراد به إدخال الجنة وتكفير السيئات.

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن الكريم ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٨٨ . فالتلاؤم بذلك "أن ينقل المعنى إلى السامع فى لفظ خفيف سلس لا تمجه الآذان ويعرض فى صورة جميلة رائعة" نشأة الفنون البلاغية أ.د/ حمزة الدمرداش ص ٧١ .

(٢) فتح القدير ٥/٤٥.

وبلاغته : إظهار علو مكانته وتعظيمه ، وقد ازداد تعظيماً من خلال البناء التركيبى حيث قدم الظرف " عند الله " وفيه اهتمام بإبراز لفظ الجلالة مقدماً ، مع بيان التكريم والفوز المعنوى الذى يسبق الفوز المادى فيكفيهم شرفا أن هذه المنزلة تكون لهم عند ربهم.

وفى تأخير المسند " فَوْزاً عَظِيمًا " للفت الانتباه ، وتوجيه الأذهان لتتبع مكونات البناء التركيبى ، كما فيه تشويق للخبر الذى يتصل بعندية الله – عز وجل – .

"والتقديم لبعض أجزاء الجملة على بعض يستقبله البلاغى استقبالاً خاصاً فيه حفز للهمة ، وإيقاظ للعقل الذى يمضى دارساً فاحصا باحثاً عن السر وراء دفع أجزاء التركيب إلى المقدمة وزحزحة الجزء الآخر إلى الذيل والمؤخرة"(١).

والفوز مصدر ، وهو الظفر بالخير ، ووصفه بالعظيم ليشير إلى علو منزلة المؤمنين ، وفيه تحفيز لهمهم .

وقد قيل فى مناسبة هذه الآية أنه لما أنزلت على الرسول – ﷺ – "لِيَغْفِرَ لَكَ ... وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا" فى رجوعه من الحديبية قال : لقد أنزلت علىّ آية هى أحب إلىّ مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم ، فقالوا هنيئاً مريئاً يا رسول الله . قد بين الله لك ماذا يفعل لك ؟ فماذا يفعل بنا ؟ نزلت ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيمًا ﴾(٢)

وليزداد المؤمنين طمأنينة بجزاء الله لهم ، أوضح جزاء غيرهم وهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات حيث قال تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا ﴾[سورة الفتح آية / ٦].

---

(١) من بلاغة المعانى ص ١٥٨.
(٢) أسباب النزول للنيسابورى ص ٣٢٤.

ربطت الواو العاطفة الآية بسابقتها ؛ لأنهما اتفقتا فى الخبرية فبينهما توسط بين الكمالين ، وقد جمعها التضاد الذى أكد مضمون كل منهما ، فبين الآيتين مقابلة تبنى على عقد الموازنة بين فريقى المؤمنين ، وما يقابله من المنافقين والمشركين.

ففى الآية الخامسة " لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ...." يقابله " وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ...".

وقوله : " جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ "يقابله : " وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا " .

وقوله : " وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا " يقابله : " غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ".

وبلاغة المقابلة : هو الجمع بين الترغيب والترهيب ، فقد رغب فى أعمال المؤمنين عن طريق إبراز النعيم وحسن العاقبة ، ففيه تحفيز ، وترغيب ، وعطف عليه ما يقابله من إبراز التعذيب وسوء العاقبة ، ففيه تنفير من هذا المصير عن طريق الترهيب.

والمقابلة فى الآيات يستدعى بعضها بعضاً ، فهى أوضح فى الدلالة على المعنى " والمقابلة من وادى تداعى المعانى حين تنقل النفس من النقيض إلى النقيض ، والمعانى تتضح بالمقابلة ، وتنعكس فى النفس ، لأنها تقترن بأضدادها"(١).

ويأت الفعل المضارع " يعذب" ليدل من خلال التضعيف على زيادة التعذيب والإيلام ، وفيه استحضار لمشهد أولئك المنافقين ، وقد نالهم عذاب الله ،وطوى ذكر المسند إليه للإيجاز مع كون المسند لا يصلح إلا له خاصة.

ووقع العذاب على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات فى الدنيا بمعرفتهم لنعم الله وعطاياه لنبيه – ﷺ– وللمؤمنين.

(١) نشأة الفنون البلاغية ص ١٨٦.

وفى الآية حسن ترتيب حيث بدأ بذكر المنافقين والمنافقات إظهاراً لضررهم، فهم أشد ضرراً على المسلمين ، حيث إنهم يسلمون بألسنتهم ، وتكيد قلوبهم للمؤمنين ، لذا كان فى تقديم تعذيبهم تعجيل للمسرة للمؤمنين .

وصرح بلفظ المنافقات لما لهن من دور بارز فى مساعدتهن فى الكيد للمسلمين ، لذا كان العدل الإلهى أن يظهرهم ويصرح بعقوبتهن وعطف "وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ "على"الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ" ليشملهم بالعذاب ، كما يشير إلى افتضاح أمر المنافقين وانكشافهم ، فهم فى حقيقة الأمر مصاحبين للمشركين معاونين لهم.

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [سورة الحشر / ١١، ١٢].

وقد جمعهم الله – عز وجل – فى حكم التعذيب كما جمعهم فى وصف واحد فقال " الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ".

ومعناه ظنهم " أن الله – تعالى – لا ينصر الرسول والمؤمنين ، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهراً"(١).

وفى الجملة إيجاز بحذف المضاف إليه والتقدير " ظن الأمر السوء"(٢).

فحكمهم قائم على الظن وليس على اليقين ، وهم إن تأملوا ما حولهم من الأدلة والبراهين الساطعة لرجعوا عن غيهم وتكبرهم وعنادهم، ولكن أنى لهم هذا وقد استحقوا أن ينقلب عليهم حكمهم فقال " عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ".

---

(١) الكشاف ٦ / ٣ .
(٢) إعراب القرآن وبيانه ٧ / ٢٢٠ .

أكد الجملة بأسلوب القصر ، وطريقه التقديم " عَلَيْهِمْ " قصر صفة على موصوف ليؤكد استحقاقهم هذا الحكم ، بل إن دائرة السوء مقصورة عليهم لا تتعداهم إلى غيرهم ، وفيه مبالغة فى تهديدهم والوعيد لهم .

وقرأ السُّوء بالضم " وهو كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية "(١)

ويظهر الله تعدد العذاب لهم وتنوعه ، فكان العطف بين الجمل فقال "وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا" .

والغضب من الله هو الانتقام منهم فى الدنيا على أيدى المؤمنين وفى التصريح بالمسند إليه "الله" مع تعريفه بالعلمية لتربية المهابة فى النفوس.

" واللعن الطرد والإبعاد على سبيل السخط ، وذلك من الله – تعالى – فى الآخرة عقوبة ، وفى الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه"(٢).

وفى الجملة تصوير لغضب الله ولعنته وإبعادهم من رحمته بإنه يعلوهم ، فنزل الاستعلاء المعنوى منزلة الاستعلاء الحسى على سبيل الاستعارة التبعية فى الحرف "على" ليشير إلى تمكن هذا الأمر منهم ، وأنه يشملهم ويحيط بهم ، فليس لهم مفر منه ، وفى هذا زيادة فى تهديدهم وتقبيح أعمالهم .

إذا كان هذا الجزاء فى الدنيا ، فإن عذاب الله لهم فى الآخرة أشد فقد جهزت لهم النار ، وذكرها بلفظ " جهنم" منكراً للإشعار بالرهبة والخوف من هذا المصير الأليم ، وفى الجملة تجريد ، حيث جرد من النار ناراً أخرى تسمى جهنم أعدت لهم خاصة مبالغة فى تعذيبهم .

وكان تقديم الجار والمجرور "لهم" مؤكداً على هذه الحقيقة فكأن جهنم أعدت وجهزت وخصصت لهم لبشاعة ماارتكبوا فى حق الرسول – ﷺ– والمؤمنين .

وعطف عليه قوله " وَسَاءتْ مَصِيرًا " معلوم أن دخول جهنم هو العاقبة السيئة الذى ينتظر هؤلاء المنافقين والمشركين .

---

(١) المفردات ص ١٥٢.
(٢) السابق ص ٤٥١.

ففى الآية إيغال [١] حيث ختمت الآية بقوله " وَسَاءتْ مَصِيرًا " وقد تم المعنى بدونها ولكن جاءت محققة لغرض بلاغى وهو زيادة فى الزجر ومبالغة فى التهديد والوعيد ، وفيه بيان لعظم ما ارتكب هؤلاء فى حق المسلمين ، لذا استحقوا تنوع العذاب لهم ، وتغليظه عليهم .

وهكذا عبر النظم القرآنى فى الآية مستخدماً الإيجاز والإطناب ولكل موضعه ، وله بلاغته " فليس الإيجاز ممدوحاً دائماً ، وليس الإطناب مذموماً دائماً ، وإنما الأمر منهما مرتبط مع مراعاة ما يقتضيه المقام وأحوال المخاطبين ، فهى التى تملى على البليغ الألفاظ اللائقة ، والصيغ المناسبة والمدار الكاف لنقل ما يريد إلى مخاطبه "[٢].

ويشير المدى الدلالى الصوتى لحركة الألف والياء " وَسَاءتْ مَصِيرًا " إلى تخيل طبيعة هذا المصير الذى يجعل فى النفوس رهبة وخوفاً منه.

ويأتى النظم القرآنى ليهدأ نفوس المتلقين بعدما اعتصرت بهذا المصير الأليم، والعذاب الشديد فقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .الواو استئنافية .

وخص الله – عز وجل – بجنود السماوات والأرض بأسلوب القصر وطريقة تقديم الجار والمجرور "لله " ليؤكد بعد مشهد العذاب السابق على أن هناك جنود تختص بعذاب هؤلاء فى الآخرة ، كما أن له – عز وجل – جنود فى الأرض تختص بعذابهم فى الدنيا ، ومنها جنود المسلمين الذين سيحققون النصر والغلبة عليهم.

وفى ختام الآية ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ وهو ما يتناسب مع مطلع الآية السابقة ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ

---

(١) ذكره أبو هلال العسكرى بقوله : أن يستوفى فى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ، ثم يأتى بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحاً وشرحاً وتوكيداً وحسنا . الصناعتين ٣٧٠ ، وعرفه الخطيب بقوله : هو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها . الايضاح ص ٢٣١.

(٢) رؤية جديدة للإيجاز والإطناب أ.د/ عبد الغنى بركة ص ٤٢.

السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا ﴾ فقد قامت الآية على التهديد والوعيد فناسب أن يذكر لهم أنهم فى قبضة العزيز الغالب الذى لا يقهر وهو ما يسميه البلاغيون تشابه الأطراف الظاهر .

وسوف نقف على تفصيل جملة الفاصلة عند الحديث عن بلاغة البنية المعجمية للفظة المتغيرة فى التركيبين المتماثلين فى السياق .

***

المبحث الثالث
بيعة الرضوان

قال تعالى :

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا *إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(١).

جاءت الآيات كاشفة عن الحكمة من إرسال الرسول- ﷺ- لتكون توطئة للحديث عن بيعة الرضوان ، وجاءت عقب ذكر عقاب المنافقين والمشركين لتؤكد على حقيقة ينكرها هؤلاء،ولا يعترفون بها مع أنها من الأمور الواضحة.

وإرسال الرسول تعد من النعم التى أسبغ الله بها على عباده لكن منهم من طمس هذه الحقيقة وتمادى فى طغيانه وعناده وانكاره ، فجاءت الجملة الخبرية لتقرر هذه الحقيقة ، فهى من الأمور الثابتة قال تعالى : " إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ...."

بدأت الآية الكريمة لافتة إلى مضمونها ، وما تخبر به ، وهى بداية تستدعى بداية السورة حيث إن المسند إليه عُرف بضمير التكلم ، ووقوع الفعل الماضى بعده ، وفاعله هذا الضمير نفسه " إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا " وبداية السورة " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ "كما أظهرت الرسول – ﷺ- مخاطباً لتؤكد على ثنائية الله ورسوله .

إن آيات السورة تتصل بعضها ببعض اتصالاً عضوياً لا تنفك عن بعضها ، هذا الاتصال الذى يعد وجهاً من أوجه إعجاز نظمه " إنه النظم القرآنى فى تماسكه الفنى ، وترابطه القوى ، يسترق الأسماع ، ويثير فى النفس أسمى آيات الإعجاب "(٢).

وتظهر الآية الكريمة نعمة أخرى أنعم الله بها على رسوله ، فهو مرسل من قبل ربه وقد خصه – تعالى – بتلك النعمة ، لذا جاءت الجملة الخبرية مؤكدة ،

---

(١) سورة الفتح الآيات ٨ – ١٠.
(٢) الإعجاز فى نظم القرآن ص ٩٩.

لإظهار أهمية الخبر فى ذاته مع تقريره وتحقيقه ، والتأكيد على ضرورة اتباعه والإيمان به ، فقد أوحى التأكيد بضرورة الإيمان به تلميحاً.

وقد ذكر الغاية من الإرسال " شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا " ثلاثة أوصاف متعددة وصل بينها بالواو العاطفة لتظهر أن لكل وصفٍ منها ملمحه الخاص به ، وغايته المرجوة منه.

إن البناء التركيبى يدفع المتلقى إلى التفاعل بين ثنايا الآية للوصول إلى تلك الحقيقة التى تظهر الرسول- ﷺ- مخاطباً بتلك الحقيقة وهى الإرسال ثم إظهار حالة تلك الإرسال ، فبدأ بالحال[١] "شاهداً" الذى يتفرع منه الحاليين التاليين" مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا " فكونه- ﷺ- شاهداً تشمل شهادته على المؤمنين ، وعلى الكافرين ، فالمؤمنون شهادة على الإيمان به وتصديقهم له ، والكافرون على مخالفته له وكفرهم برسالته ، وتكذيبهم له ، فهو يشهد حالهم فى الدنيا ليشهد عليهم فى الآخرة ، وبذلك يكون مبشراً للمؤمنين ، منذراً للكافرين.

ففى الآية يظهر لون الجمع مع التفريق ، حيث جمع المؤمنين والكافرين فى كونه - ﷺ- شاهداً عليهم ، ثم فرق بين حال كل منهما، فشهادته -ﷺ- تبشير للمؤمنين المطيعين بالثواب على طاعتهم ، ونذير للكافرين المكذبين بالعذاب على معصيتهم.

وقد ذكرت شهادته - ﷺ- فى مواضع أخرى.

قال تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا ﴾ [٢].

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٣].

---

(١) شاهداً حال مقدرة أى يكون يوم القيامة ، والبشارة والإنذار حال يكون النبى ملابساً لها فى الدنيا لمن شاهده فيها من أمته ، وحال مقدرة لمن يأتى بعده من أمته إلى يوم القيامة ممن لم يشاهده . معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٢١/٥.

(٢) سورة النساء آية ٤١ .

(٣) سورة البقرة آية ١٤٣ .

ويأت البناء الصوتى للآية الكريمة ليؤكد على وضوح إرسال الرسل من خلال اختيار الألف والياء من أصوات المد ، والميم والنون من الأصوات السائلة التى تحقق مع حروف المد الوضوح السمعى ، واختار حرف الراء وكرره ، ليظهر أنها حقيقة ينبغى أن يجهر بها أمام هؤلاء الطغاة ، والعصاة ، وقد شملت أحرف الجهر الميم والنون ، والباء والدال ، والراء.

إن تلك الأصوات تأخذنا إلى إبراز أهمية الإيمان برسالة النبى – ﷺ– فهى أولى خطوات تحقق رسوخ العقيدة فى النفس ، فإن من يؤمن قلبه بتلك الحقيقة ، ويجهر بها لسانه ، ويوضحها سلوكه وأفعاله استحق شهادة صاحب الرسالة – محمد – ﷺ– بأنه من أهل الإيمان الذين يستحقون الثواب العظيم.

أما من يؤمن قلبه بتلك الحقيقة ، ويجهر بها لسانه ، ولم يوضحها من خلال سلوكه وأفعاله ، استحق شهادة صاحب الرسالة محمد – ﷺ– بأنه من أهل المعصية الذين يستحقون العقاب الأليم.

وإذا كانت حقيقة الإيمان ظهرت تلميحا عبر صياغة الآية الكريمة " إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا... " فقد أوضح الله تلك الحقيقة وضوحاً جلياً فقال : ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ .... ﴾ .

جاءت الجملة الانشائية عن طريق الأمر "لِتُؤْمِنُوا" لتوحى إلى الإلزام والوجوب بالإيمان من الله – عز وجل – فيجب علينا التصديق القلبى به – ﷺ– وأن يكون سلوكنا مطابقاً لذلك التصديق .

وجاء التنوع فى المعنى بالتنوع فى طريقة العرض ، حيث زاوج بين الجملة الخبرية ، والجملة الإنشائية ، وقد فصلت تلك الجملة عن سابقها لكمال الانقطاع مع عدم توهم الفصل خلاف المراد ، حيث إن الجملة **الأولى** : " إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ .... " حبرية لفظاً ومعنى.

والثانية : " لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...."إنشائية لفظاً ومعنى .

وجاء الفعل المضارع ليكشف عن تجدد تلك الأفعال واستمرارها كما تدل زيادة المبنى على زيادة المعنى ، فجاء التضعيف ليؤكد على تكرارها وهذا الإيمان يكون " بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ".

حيث أظهر الله – عز وجل – باسمه الجامع لكل صفات الجلال والإكرام تعظيماً له ، فهو المستحق للعبودية دون غيره مما يعبد هؤلاء الكفار.

وعطف الرسول– ﷺ– مع حذف الإيمان معه، ليجعل الإيمان بالرسول – ﷺ– مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالإيمان بالله – عز وجل – فمن يؤمن بالله ، وينكر الإيمان برسالة الرسول – ﷺ– لا يكون مؤمناً حقاً، وفى إضافة الرسول – ﷺ– لله – عز وجل – تعظيماً وتشريفاً له – ﷺ– وبياناً لمكانته عند ربه ، لذا لم يكتف بإظهار حقيقة الإيمان بالتصديق القلبى فقط، وإنما أردفه بالأفعال الواضحة التى تظهر هذا التصديق فقال : " وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ " تعدد المطلوب منهم.

ومعنى تعزروه: نصرة الرسول– ﷺ– ومعنى توقروه : تعظموه.

وزاد على ذلك " وَتُسَبِّحُوهُ ": وهو تنزيه الله – عز وجل – عن كل نقص ، فالفعل المضارع جعل التسبيح متجدداً مستمراً .

وجاء ختام الآية ليؤكد تلك الحقيقة فقال : " بُكْرَةً وَأَصِيلا " فى أول النهار وآخره، فكان التصوير الكنائى ليشير إلى استيعاب جميع الأوقات دون انقطاع.

" فالكناية تعطيك المعنى مصحوباً بالدليل والبرهان ، فيكون ذلك تأكيداً وتثبيتاً له فى الذهن ، لأن ذكر الشىء ومعه دليله وبرهانه أوقع فى النفس ، وأعلق بالفؤاد من أن تتركه من غير برهان[١] .

فأسلوب الكناية فى الآية أبلغ لأن فيه دليلاً وبرهاناً على المداومة على التسبيح .

(١) الكناية أ.د/ حمزة الدمرداش ص ٢٤ .

وكان الطباق الإيجابى بين الاسمين " بكرة وأصيلا " مؤكداً على تلك الحقيقة ، وهى أن يلتزم المؤمن بتسبيح الله فى جميع الأوقات، وأن يجدد هذا الفعل فى كل تصرفاته ، وأن يدوام على ذلك .

وقد يكون المقصود بالتسبيح الصلاة ، وبكرة صلاة الفجر وأصيلا : الصلوات الأربع [١].

ويكون بذلك فى التعبير مجاز مرسل بعلاقة الجزئية حيث إن التسبيح جزء من الصلاة ، ولا يمنع حقيقة اللفظ أن يشمل التنزيه مع إرادة الصلاة.

ولفظ التسبيح يدل بناؤه الصوتى من السين والحاء الرخويين ذلك الامتداد الزمنى الذى يشمل تلك المعانى السابقة مجتمعة.

وتصطبغ الآية بلون اللف والنشر[٢] غير المرتب ثقة بأن المتلقى يرد كل إلى ما يليق به ، حيث جاء اللف فى قوله " بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ "والنشر فى قوله :" وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ " فقوله : " وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ " يناسب الرسول – ﷺ– وقوله: " وَتُسَبِّحُوهُ " يناسب "الله" وقد بدأ بالرسول – ﷺ– أولاً تشريفاً وتعظيماً له .

لقد استندت الآية الكريمة فى بنائها التركيبى على الفعل المضارع لتجعل هذه الأفعال مع تجددها واستمرارها مستحضرة مشاهدة لكل من يقرأ تلك الآيات ، أو يستمع إليها ، فهو يستحضر شخص الرسول – ﷺ– ويعمل على نصرته وتعظيمه ، ويستحضر ربه مسبحاً له ، ومتقرباً منه فى كل أقواله وأفعاله .

لقد ساعد فن اللف والنشر على إعمال فكر المتلقى فى تلك الصياغة وكيف تآلفت كلماتها ، واهتزت لها أوتار القلوب ، وتحركت العقول لتضع لكل مفردة مع ما يناسبها ، إنه النظم الإلهى الذى لا يقدر على مثله إلا رب السماوات والأرض المستحق للتنزيه والتعظيم.

---

(١) ينظر تفسير أبى مسعود ٥/ ٥٩٦.

(٢) اللف والنشر : ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه . شروح التلخيص ٣٢٩/٤ .

إن هذه الآية ليست خطاباً للمؤمنين فى عهد النبوة ، إنها خطاب مستمر لهم فى كل وقت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن كل من يقرأ الآيات يستشعر أنه يدخل ضمن المخاطبين بها ، والمتأمل فى الآية يجد أن مضمونها يرتكز على حقيقة الإيمان ، والذى جاء فى الآيتين الرابعة والخامسة حديثاً عن المؤمنين .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

أما فى الآية الكريمة فقد جاء الحديث إليهم ، وبهذا التنوع فى البناء التركيبى يؤدى إلى نشاط المتلقى ، وتطرية للذهن ليجعله أكثر تجاوباً واتصالاً بالآيات، ويحفزه إلى التماس حقيقة الإيمان الذى تبنى عليه كل أقواله وأفعاله.

إنها تجعل كل من ينتسب إلى الإسلام يفكر ويتدبر فى حقيقة إيمانه وهل وصل إيمانه بخالقه إلى المكانة التى يستحق معها شهادة رسوله – ﷺ– عليه، والتى يحظى بعدها بثواب الله – عز وجل – فى الآخرة ، إنه لن يصل إلى هذا ، إلا بنصرة نبيه ، وهذه النصرة تتجدد بحسب ما يستطيع كل شخص .

فالرجال لهم السبل التى تمكنهم من ذاك ، والنساء لهن دور من نصرة الرسول – ﷺ– بحسب ما يتناسب مع طبيعتهن ، وما يتطلب منهن.

ويأت الحديث عن بيعة الرضوان ليكون الدليل على نصرة هؤلاء لنبيهم فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١).

بعد أن تحدثت الآية السابقة عن تحقيق الإيمان بالجمع بين الاعتقاد بوحدانية الله ونبوة الرسول – ﷺ–.

(١) سورة الفتح آية : ١٠.

جاءت الآية الكريمة لتؤكد على هذه الحقيقة من خلال مشهد واقعى وهو مبايعة الرسول- ﷺ- فى بيعة الرضوان ، فهى طاعة لله ومبايعة للرسول - ﷺ-.

وعبر المبايعة بالجملة الخبرية المؤكدة بـ "إن ، أسلوب القصر" للتأكيد على أهمية المبابيعة وأثرها على الدعوة الإسلامية .

وتعريف المسند إليه بالموصولية "الذين" للإيماء إلى وجه بناء الخبر مع تعظيمه فهم فى مبايعتهم للرسول - ﷺ-اكتسبوا الشرف والمنزلة العالية ، وازدادت تلك المبايعة التعظيم لأنها فى الحقيقة مبايعة لله – عز وجل – فقال تعالى : " إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ " فكان هذا اللون من النظم له روعته وبلاغته ، وإمتاعه وإقناعه ،وأضفى على المعنى ثراء ، وتجديداً ، وتطلعاً إلى معرفة المزيد عن تلك المبايعة التى ذكرها بالفعل المضارع مع خطاب النبى - ﷺ- " يُبَايِعُونَكَ " لاستحضار صورتها وكأنها مشاهدة محسوسة لكل من يقرأ الآية الكريمة إنها ترسم صورة للصحابة الكرام ، وهم يعاهدون الرسول- ﷺ- على نصرته ، ونصرة دين الله ،وإنهم حينما وضعوا أيديهم فى يد الرسول كانت يد الله فوق أيديهم ، إنه مشهد يهتز له الوجدان ، وتقشعر له الأبدان ويزداد المتلقى تشوقاً لمعرفة المزيد عنه ، فإذا بالتصوير الاستعارى يوضحه ويظهره ، حيث شبه المعاهدة على التضحية بالنفس فى سبيل الله طاعة له – سبحانه – وابتغاء لمرضاته بالبيع وهو تبادل السلع مقابل المال ، واستعير المشبه به للمشبه ، واشتق من البيع يبايعون بمعنى يعاهدون وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وبلاغتها : أن التصوير جاء بما هو متعارف ومشتهر لديهم وهو البيع ؛ لأنه فيه تحصل المبادلة ، فكما أنهم يبادلون بين المال والمال فإن معاهدتهم مبنية على المبادلة وهو التزام الثبات فى محاربة الكافرين وبين حصول مرضاة الله – عز وجل – والفوز بجنات النعيم.

وهكذا أعطت الاستعارة للصورة الحيوية التامة .. فالمعانى التى لا تقع تحت الحس مباشرة ، والجمادات التى لا حياة فيها ... تتحول إلى كائنات حسية تتحرك وتتكلم وتستقل بالفكر والتصرف "[١].

وجاءت حركات المد فى المبايعة " إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ " تشير إلى الوضوح السمعى"[٢].

وجاء الخبر " إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ " مكتسيا أسلوب القصر الذى طريقه "إنما" وهى تستخدم فيما يعلمه المخاطب[٣]، وقد وقع هذا موقعه من البلاغة والدقة فى التعبير حيث ذكر فى الآية السابقة أن الإيمان بالله مقترن به الإيمان برسوله – ﷺ– لذا فإن طاعة الرسول هى طاعة لله .

وقد وقع قصر المبايعة على الله – عز وجل – قصر صفة على موصوف وقد كانت المبايعة للرسول – ﷺ– وفى هذا تشريف له حيث جعل مبايعته هى مبايعة لله – عز وجل – .

وأكد على هذه الحقيقة فقال : " يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ " .

فالمعنى كما ذكره الزمخشرى[٤]: تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول – ﷺ– كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى : ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[٥].

وقرئ : " إِنَّمَا يُبَايِعُونَ للَّهَ" أى لأجل الله تعالى ، ولوجهه ، والمفعول محذوف أى : إنما يبايعونك لله " [٦].

---

(١) التصوير الفنى فى الحديث النبوى ص ٥٥٨.
(٢) دراسات فى علم الأصوات اللغوية ص ١١١ .
(٣) استعمال "إنما" تأكيد للإثبات ، فالقصر تأكيد للكلام غير أن التأكيد مع "إنما" تأكيد للإثبات ، ومع النفى والاستثناء تأكيد للنفى .
يقول الإمام عبد القاهر الجرجانى اعلم أن "إنما" على أن تجئ لخبر لا يجهله المخاطب ، ولا يدفع صحته ، أو لما ينزله هذه المنزلة . ينظر الدلائل ص ٣٣٥.
(٤) الكشاف ٦ / ٤ .
(٥) سورة النساء ’ية ٨٠ .
(٦) روح المعانى ٩٦/٢٦ .

وتعقب الآية على أطراف البيعة : " فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ " فبدأ بالفريق الذى لم يلتزم بما فى البيعة ، وكان التركيب الدلالى بأسلوب الشرط الذى يجعل التلازم والترابط بين فعل الشرط وجوابه، ويجعل المتلقى يربط بينهما سببا ونتيجة ،فقوله" فَمَن نَّكَثَ " النكث نقض ما تعقده ، وهو فى الأصل نكث الحبل والسواك [١].

ومن المجاز : نكث العهد والبيعة[٢].

جاء فى اللسان : نكث العهد وهو نقضه بعد إحكامه ، كما تنكث خيوط الصوف المغزول بعد إبرامه [٣].

فالنظم القرآنى يتخذ من حياة العرب بيانا لهم ، ويوضح لهم ما هو خفى بصورة المعلوم لديهم ، ليستقر المعنى فى الأذهان ، وهو بذلك يستخدم أروع الأساليب البلاغية ؛ لأن هذا الضرب وهو تمثيل المعلوم بالمحسوس هو "المنزلة التى تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شاءت المجال فى تفننها وتصرفها "[٤].

فيصور من ينقض العهد مع الرسول – ﷺ- بعد إحكامه فى نفسه ، والالتزام به ، بمن ينقض خيوط الصوف بعد أن ألزم نفسه بإبرامها ، وهى صورة توحى بأن من ينقض البيعة ينقضها متعمداً متيقناً بما يفعل ؛ لذا جاء جواب الشرط موضحاً عاقبة هذا الفعل "فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ "، وكان التوكيد بأسلوب القصر الذى يعطى الجملة قوة الجملتين ليزيد من تأكيد الأمر وتقريره، وأن هذه العاقبة ، لا شك فيها حيث إن الناكث يعود بالضرر على نفسه ، وقد جعل الناكث يتردد فى عاقبة فعله ، لذا أكد له العاقبة وقد وقع الضرر عليه، فالقصر من ناحية الطرفين قصر صفة النكث على موصوف وهو الناكث ، وكان التعبير بطريق

---

(١) لسان العرب ٤٥٣٦/٦ مادة نكث .
(٢) أساس البلاغة ص ٦٥٤ .
(٣) لسان العرب ٦/ /٤٥٣٦ مادة نكث.
(٤) أسرار البلاغة ص ٦٦ .

"إنما" حيث نزل المجهول منزلة المعلوم لداع بلاغى ، وهو جعل العاقبة والضرر الذى يجلبه الناكث لنفسه فى صورة معلومة ، لتخويفه وترهيبه حتى يدفع النفس لعمل الصواب والالتزام بالعهد.

والقصر باعتبار حال المخاطب قصر قلب ، فإن الناكث يعتقد أنه يضر بنكثه العهد النبى- ﷺ- فقلب عليه هذا الاعتقاد ، وجعل الضرر يعود عليه ، فهو لا يضر إلا نفسه .

وتركيب الجملة الشرطية يحقق هذا الغرض ، لإن فعل الشرط جاء ماضياً "نكث" وجوابه جاء مضارعاً " ينكث" ليجعل ما يتخذه الناكث من عدم الوفاء بالعهد قراراً واحداً ، ولكن عواقبه ومضاره ، متجددة مستمرة ، وفى هذا ردع وتخويف من نقض العهد مع الرسول – ﷺ-.

وفى التصوير البيانى عن طريق الاستعارة التبعية فى الحرف على ما يعمق هذا الشعور بالخوف والرهبة ، حيث صور عاقبة نكث العهد التى تعود على الناكث بشىء مادى محسوى يعلوه ، فنزل الاستعلاء المعنوى منزلة الاستعلاء الحسى ، ليظهر ضرر النكث وقد أحاط بالناكث من كل مكان ، وقد شمله شمولاً كلياً وإذا كان الإنسان جالباً لنفسه الضرر فهو يظهر سفاهته وتخبطه ، فكيف يدفع بنفسه إلى الوقوع فى الضرر؟

وطبيعة الدلالة الصوتية تؤكد على ذلك حيث برز رخاوة الثاء وخفائها لهمسها [١].

وفى الجملة تعبير على خلاف مقتضى الظاهر ، ففى بداية الآية عبر بالجمع " إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ " ولكن عند الحديث عن نقض العهد عبر بالإفراد " فَمَن نَّكَثَ . . . " .

وبلاغة العدول من الجمع إلى الإفراد : ليشير إلى حقيقة وهى أن الصحابة جميعهم كانوا حريصين على الالتزام والوفاء بالبيعة ، وقلة قليلة ربما يصدر

---

(١) الثاء : صوت من بين الأسنان مهموس .
ينظر دراسات فى التجويد والأصوات اللغوية أ.د/عبد الحميد أبو سكين ص ١١٣.

منها عدم الوفاء ؛ لذا من يقع فى هذا الخطأ ، فهو معزول بعيد عن جماعة المؤمنين وقد قيل: " ما نكث أحد البيعة إلا جد ابن قيس وكان منافقاً" (١).

وتأت صورة الوفاء بالعهد ليظهر الجزاء واضحاً جلياً فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

جاء التركيب الدلالى عبر أسلوب الشرط لتكون الجملة مقابلة وموازنة بين "مَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ " وتحقق التصوير عبر الموازنة والمقابلة تزيين الآية بحسن التقسيم حيث شملت جميع من هم فى البيعة بالحكم ولا ثالث لهما ، وجعلت العهد وإن كان مع النبى – ﷺ– فى الظاهر ، فهو فى حقيقة الأمر عهد مع الله ، لذا جاء الوفاء بالعهد مصرحاً فيه بلفظ الجلالة "الله" ، وعبر عن مضمون العهد بالموصولية "بِمَا عَاهَدَ " مع التصريح بلفظ المعاهدة صريحاً ولم يجعله مكتسيا المجاز كما فى بداية الآية " إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ".

وبذلك يترك للمتلقى التفكير فى حقيقة العهد ، واستحضاره فى ذهنه مع استحضار الذات العلية مصرحاً بها لترية المهابة فى النفوس ، وجعل عاقبة الوفاء توحى بالترغيب فى الفعل فقال " فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا "حيث استحضار واهب الأجر وهو الله – عز وجل –

وجاء تنكير "أجراً" مع وصفه بالعظمة ، ليجعل العموم الدلالى فى كلمة "أجراً"، مع التحديد فى الوصف " عظيماً" مجالاً رحباً للمتلقى للتفكير للوقوف على ماهيته مع إمكانية تنوعه وكثرته ، فالأجر قد يكون فى الدنيا فى أمور كثيرة ، وقد يكون فى الآخرة بدخول الجنة ، والتنعم بألوان النعيم المختلفة ، وبهذا تتحرك النفوس وتهفو نحو الإقبال على الوفاء بالعهد لينالوا الأجر العظيم من الرحمن الرحيم.

(١) روح المعانى ٢٦/ ٩٧.

وهكذا تبرز الآية الكريمة ناكث العهد وحيداً قد أضر نفسه ، أما من أوفى بالعهد فالله معه يصبغ عليه بالعطاء والأجر العظيم. لقد تنوعت طرائق التصوير فى الآية الكريمة وامتزج بعضها ببعض ، فكان التصوير البيانى متمثلاً فى الاستعارة التصريحية التبعية ، وكان التصوير عن طريق الموازنة والمقابلة ، وكان التصوير عن طريق القصة حيث بدا الأسلوب القصصى واضحاً .كل ذلك ليتخذ من عنصر التصوير والتخييل ملمحاً أساسياً يجعل المتلقى يتعايش مع المبايعين ، وكأنه حاضر معهم يشاهدويطلع على أقوالهم، وقد أحاطتهم عناية الله ورعايته .

الفصل الثاني
من بلاغة التعبير القرآني
في الحديث عن الأعراب وصفاتهم كما وردت فى السورة

المبحث الأول : الأعراب والدعوة للقتال فى سبيل الله

المبحث الثانى: الأعراب والغنائم

المبحث الأول

الأعراب والدعوة للقتال في سبيل الله

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الاعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا *بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا *وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا* وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

[سورة الفتح الآيات : ١١ – ١٤].

المبحث الأول

الأعراب والدعوة للقتال

قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الاعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾(١).

الآية الكريمة إخبار من الله – تعالى – لنبيه– ﷺ– بغيب سيكون ، وهو ما يعتبر وجها من أوجه الإعجاز القرآنى .

" الإخبار عن الغيب ، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه(٢). فلم يكن ذلك من شأن العرب ، ولا يقع تحت مقدرتهم .

وصدرت الآية بحرف التنفيس السين فى قوله: " سَيَقُولُ" دون سوف، وهما يعبران عما سيقع فى المستقبل ، ولكن بينهما فرقاً دقيقاً يؤكد على إعجاز القرآن في اختيار ألفاظه ، بل دقته فى اختيار الحرف " فالسين تستعمل فى المستقبل القريب ، وسوف للمستقبل البعيد الوقوع"(٣).

والسين تناسب المقام فى الآية ، وهو قرب وقوع القول من قائليه وهم "الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الاعْرَابِ " بعد قدوم الرسول – ﷺ– إلى المدينة عائداً من مكة وقد حيل بينهم وبين أداء نسك العمرة .وفى تقديم الجار والمجرور : " لَكَ " يظهر مكانة الرسول – ﷺ– فى نفوسهم فهم يقدمون الاعتذار بين يديه ، وله خاصة ليخفوا حقيقة أمرهم، وتغافلوا عن حقيقة هامة ختم الله بها الآية حيث قال " بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ".

---

(١) سورة الفتح الآية ١١ .
(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٤٧ ، ٦٣.
(٣) البرهان ٤ / ٢٨٢ ، دراسات لأسلوب القرآن الكريم – ٢ / ١٧٦.

وعبر النظم القرآنى عن هؤلاء بقوله " الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الاعْرَابِ " فلفظ المخلفون : اسم مفعول من "خلف الأمر" جمع مخلف، وفى إيثار هذا اللفظ ذم وإهانة لهم، فكأن النبى – ﷺ– تركهم خلفه لا يعتد بهم ، أو أن من ذهبوا مع النبى – ﷺ– تركوهم خلفهم ولا يعتدون بهم لعدم نفعهم، كما يشير اللفظ إلى أن هناك قوة سيطرت عليهم ، ودفعتهم إلى عدم الذهاب مع النبى – ﷺ– ، فهم لم يتخلفوا من تلقاء أنفسهم ، وإنما استجابة لقوة خارجة عنهم سيطرت عليهم ، وهى حبهم للدنيا وتعلقهم بها على الآخرة ، وهو ما يوضحه قوله تعالى : "شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا " ..

فدلالة اسم المفعول تجعل هذه المعانى تتداعى عند قراءة الآية الكريمة لتظهر تعلقهم بدنياهم ، وذمهم بهذا العذر الكاذب ، وبهذا تتحقق فصاحة اللفظة فى سياقها لأنها " أمسها رحما بالمعنى وأفصحها فى الدلالة عليه ، وأحسنها فى النسق وأبدعها سناء [١].

وقوله "مِنَ الاعْرَابِ" من بيانه[٢]، ولفظ الأعراب اسم جنس واحده أعرابى ، وهم سكان البادية خاصة يتتبعون مساقط الغيث ومنابت الكلأ[٣]، وقد عرف عن الأعراب جفوة الطباع، وغلظة القلب عندما يقهرون غيرهم، نظراً لظروف حياتهم، فجعل هذا الحكم ليس حكماً مطلقاً على جميع الأعراب فهم المخلفون منهم ، الناكصون عن الجهاد ، وهم أعراب جهينة ، ومزينة ، وغفار ، وأشجع ، ففى ذكر لفظ "المخلفون" ليظهر أن هذا

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعى ص ١٩٢.

(٢) الكتاب : ١ / ١٢ تحقيق عبد السلام هارون ومنه قوله تعالى : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الاوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [سورة الحج آية ٣٠]. ومجئ من لبيان الجنس ظاهر آيات كثيرة وردت فى القرآن الكريم فالذين قالوا بأنها تجئ لبيان الجنس وقفوا مع ظاهر المعنى بناء على قاعدة سيبويه ... وإن أمكن لأن يكون المراد غيره.
ينظر الجر علم الأسماء ص ٣٢٨ .

(٣) المعجم الوسيط ٢/ ٥٩١.

القول جاء ممن تخلف عن الخروج مع الرسول – ﷺ – وبهذا يدفع ما قد يتوهم أنهم جميعاً مشتركون فى هذا القول ، وهو ما يسميه البلاغيون احتراس حسن.

وقد ذكر الله – عز وجل – الأعراب فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١).

ومنهم المؤمنون قال الله تعالى فيهم .

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

ومنه قوله تعالى : ﴿قَالَتِ الاعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الايمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

وذكر هؤلاء سبب تخلفهم عن المشاركة فى الحديبية فقالوا : "شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا" إيثار لفظ " شغل" ليشير إلى الاستغراق التام فى الإنشغال ويجعل المتلقى ينتبه إلى ما سيذكر من علة سيطرت عليهم ومنعتهم من الاستجابة لدعوة الرسول – ﷺ– لهم بالخروج معهم .

وفى تعريف المسند إليه بالإضافة " أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا " فيه دلالتان :**الأولى** : إشارة إلى اهتمامهم وحرصهم على ما يملكون من أموال وأهل .**الثانية** : أن عذرهم هو حفظ للأموال التى جمعت وصارت ملكاً لهم بين أيديهم ، وليس السعى لجمع الأموال ؛ لأن هذا لا يعد عذر حقيقياً.وعطف " وَأَهْلُونَا" على أَمْوَالُنَا " حتى يقوى ويعضد عذرهم ، فالأموال وحدها لا تعد عذراً ؛ وإنما العذر الحقيقى هو صيانة الأهل والحفاظ عليهم .

---

(١) سورة التوبة الآية ٩٧.
(٢) سورة الفتح الآيات ١٤.
(٣) سورة الحجرات الآية ١١ – ١٤.

وقدموا بين يدى الرسول – ﷺ– ما يفضحهم فى عذرهم حيث قدموا الأموال على الأهل ، ليظهروا تعلقهم بدنياهم ، وأن اهتمامهم بالأموال يفوق اهتمامهم بأهليهم .

وذكر الألوسى وجهاً آخر للتقديم " ولعل ذكر الأهل بعد الأموال من باب الترقى لأن حفظ الأهل عند ذوى الغيرة أهم من حفظ الأموال"(١).

وفى اسناد الشغل للأموال والأهلون مجاز عقلى(٢). بعلاقة السببية، حيث إن المال والأهل سبب فى الانشغال لا فاعلان له .

وعقبوا على ذكر العذر بقولهم "فَاسْتَغْفِرْ لَنَا " طلبوا المغفرة ليعطوا حقيقتين :-**الأولى** : إظهار ارتباطهم بالله – عز وجل – وليس بالدنيا ، فهم وإن وقعوا فى الخطأ فإنهم ينتظرون العفو من الله – عز وجل – . **الثانيــة** : إظهار لمكانة النبى – ﷺ– فى نفوسهم ، وأنهم على علم بقربه من الله – عز وجل – .

والأسلوب الإنشائى فى الأمر غرضه الالتماس ، فهم يلتمسون منه – ﷺ– أن يدعو لهم بالمغفرة .

وفى الجملة إيجاز حذف : والتقدير : فاستغفر لنا تخلفنا عن الخروج معك وحذف معمول الاستغفار حتى لا يكون فيه تصريح بالتقصير.

وهو ما يشير إلى نواياهم الحقيقة والتى فضحهم الله بقوله يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ " فصلت الجملة عن سابقتها فهى بدل اشتمال من قوله " سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ " وهو من مواضع كمال الاتصال .

ومن الممكن أن تكون الجملة استئناف بيانى فيكون الفصل لشبه كمال الاتصال(٣) حيث أثارت الجملة الأول بفحواها سؤالاً تقديره ما حقيقة "أمر المخلفين"؟ فكانت الجملة جواباً له " يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم " ولا يوصل بين الجواب والسؤال.

---

(١) روح المعانى ٢٦ / ٩٨.

(٢) المجازالعقلى : يؤدى المعنى المقصود بإيجاز ، ويصور المعنى خير تصوير ، ولا يخلو من مبالغة بديعة ذات أثر فى جعل المجاز رائعاً خلاباً ينظر : البلاغة الواضحة ص ١٢١ بتصرف.

(٣) شبه كمال الاتصال : من فنون البلاغة التى يمتنع فيها الوصل وبلاغته . الإيجاز بتكثير المعنى وتقليل اللفظ وهو تقدير السؤال وترك العاطف .
ينظر شروح التلخيص ٣/ ٥٥ ، وبغية الإيضاح ٢/ ٧٩ .

وبدأ الجملة " بالفعل المضارع " يَقُولُونَ " الذى يشير إلى أنهم كرروا هذا القول ليخفوا حقيقة موقفهم حيث الخداع والكذب ، وليس ما قدموا من عذر فيه إقرار بالذنب ، واعتراف بالإساءة.

وصرح بقوله "بِأَلْسِنَتِهِم" فمعلوم أن القول يكون باللسان ، ولكن أبرز الجار والمجرور : ليجعل القول ملاصقاً[١]لألسنتهم لا يتعداها إلى قلوبهم، وهو بذلك يصرح بثنائية اللسان والقلب : فموقفهم مغاير لحقيقتهم ، فكلامهم " من طرف اللسان غير مطابق لما فى الجنان" [٢].

كما أن الاستعارة التبعية فى حرف (الباء) فى قوله:" بِأَلْسِنَتِهِم " تؤكد على تعمدهم الكذب وحرصهم عليه .

ولفظ اللسان مجاز مرسل باعتبار الألية ، فقد ذكر أداة القول وهو اللسان ليكون شاهداً على كذبهم فى آخرتهم .قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣].

وجاءت جملة النفى " مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ " فقد جعل سياق الآية من لفظ " قُلُوبِهِمْ " يشمل كل ما يدور عليه هذا اللفظ من معنى مراد فقد يشمل أداة التفكير كما فى قوله تعالى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [سورة الأحزاب ١٧٩].ويشمل أداة الوجدان كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى

(١) الباء للإلصاق وهو أصل معانيها . قال سيبويه :
"وباء الجر إنما هى للإلزاق والاختلاط . ينظر الكتاب ٤/ ٢١٧ والإلصاق ضربان حقيقى : أمسكت الحبل بيدى : ألصقتها به ، ومجازى : مررت بزيد .
ينظر الجنى الدانى ص ٣٦ .
(٢) فتح القدير٥/٧٥
(٣) سورة النور آية ٢٤.

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (سورة الأنفال :٢)ويشمل أداة الإرادة كما فى قوله تعالى : ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [سورة الأنفال : ١١].

" فالقرآن يستخدم القلب فيما نطلق عليه اليوم كلمة العقل ، وجعله فى الجوف حيناً فى قوله تعالى : ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب : ٤].وفى الصدر حيناً فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦].

تعبير عما يشعر به الإنسان عندما يلم به وجدان ، أو تملؤه همة وإرادة"[١].

وفى جملة "يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ " كناية عن صفة للكذب .

وجاء التصريح باللسان والقلب ليعم التكذيب للأمرين : **الأول** : قولهم "فَاسْتَغْفِرْ لَنَا " فظاهر القول اعتراف بالذنب والتقصير، وأنهم مسيئون بتخلفهم عن الرسول – ﷺ – ولم يكن ذلك فى اعتقادهم ؛ لأنهم كاذبون فى ذلك .

الثانى : تكذيبهم فى قولهم " شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا " حيث لم تشغ

لهم الأموال والأهل عن الخروج حقاً ، وإنما منعهم ظنهم أن الرسول – ﷺ– لن ينقلب هو والمؤمنون إلى أهليهم ، وأن أهل مكة سيوقعون بهم الضرر ، وهذا ما صرح به فى قوله تعالى : " بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ".

" ومما يبعث على معرفة الإعجاز المقامات ، وذكر فى كل موضع ما يلائمه، ووضع الألفاظ فى كل موضع ما يليق به ، وإن كانت مترادفة ، حتى لو أبدل واحد منها بالآخر ذهبت تلك الطلاوة ، وفاتت تلك الحلاوة"[٢].

ومن بلاغة النظم القرآنى ودقته فى اختيار مفرداته ، فقد ورد فى سورة آل عمران : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[٣] حيث جعل القول بالأفواه . وليس

---

(١) من بلاغة القرآن ص ٥٤.
(٢) البرهان : ٢/ ١١٨.
(٣) سورة آل عمران آية ١٦٧.

بالألسنة كما فى الآية الكريمة . وبالتأمل نجد أن الآيتين اختلفتا بحسب حال القائلين . ففى سورة آل عمران أخبرت الآية عن المنافقين وخاصة عبد الله بن أبى الذى استحكم نفاقه ، فجاء لفظ "أفواه" الذى ينبئ عن مبالغة واستحكام وتمكن فى اعتقاد ، أو قصد لا ينهض به لفظ "بِأَلْسِنَتِهِم" فلأن النفاق استحكم فى المنافقين جاء لفظ : "بِأَفْوَاهِهِم "[١].

كما يشير بهذا التركيب الدلالى إلى كذبهم " وذلك أن كل موضع علق الله حكم القول بالفم فإشارة إلى الكذب وتنبيه أن الاعتقاد لا يطابقه"[٢].

أما فى الآية الكريمة فهى حديث عن جماعة من الأعراب لم يصل نفاقهم إلى ما وصل إليه حال المنافقين فى سورة آل عمران[٣] فعبر بالألسنة إشعاراً بأن حال هؤلاء ليس كحال المنافقين فى آل عمران وهذا ما سيشهد عليه توالى الآيات ومتابعتها فى السورة الكريمة .

وقد جمع المتنبى بين لفظ الأفواه والألسنة فى قوله :

تعثّرت به فى الأفواه ألسنتها ... والبُرد فى الطرق والأقلام فى الكتب[٤]

وكان عليه الاكتفاء بأحدهما ليستقى بلاغته من نظم القرآن الكريم.

والمتتبع لآيات الذكر الحكيم يجد أن كلمة " أفواه – أفواههم: لم ترد إلا فى سياق الكذب والنفاق[٥]، أما كلمة ألسنتهم وردت فى سياقات متعددة منها الكذب والنفاق[٦]. والنفاق[٦].

---

(١) ملاك التأويل للغرناطى ١٠٢٦/٢

(٢) المفردات ص ٣٨٩.

(٣) ملاك التأويل ٣٢٥/١

(٤) ديوان المتنبى :١/ ٢١٦.

(٥) منه قوله تعالى : ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ .[سورة الأحزاب آية ٤]. ﴿ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا ﴾ [سورة الكهف آية ٥]

(٦) قوله تعالى: ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ [سورة النساء آية ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ

وإذا كانت الجملة السابقة : " يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ " خبرية، فقد جاء عقبها بالجملة الإنشائية ليزَاوجَ بين الأسلوب الخبرى والإنشائى فقال : " قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا " ليوقظ الأذهان إلى حقيقة ينبغى ألا يغفل عنها هؤلاء ولا غيرهم ، وجاء إثبات تلك الحقيقة عبر الوساطة النبوية ، فلم تكن تلك الحقيقة موجهة من الله لهم مباشرة ، أو منه – ﷺ– لهم مباشرة ، ليظهر بشاعة صنيعهم ، وأنهم وإن كانوا يعلمون تلك الحقيقة ، لكنهم تغافلوا عنها لتعلقهم بالدنيا ، وأخذوا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم.

وكان الفصل بين هذه الجملة وسابقتها محققاً لتلك المعانى كلها حيث فصل بين الجملتين لكمال الانقطاع ، فالأولى خبرية لفظاً ومعنى ، والثانية إنشائية لفظاً ومعنى .

وصدرت الآية بالأمر للرسول – ﷺ– ، وفيه إلزام ووجوب للرد عليهم بذلك عند اعتذارهم ، وأعقبه بالاستفهام الذى يحض على التفكير " قُلْ فَمَن يَمْلِكُ...".

وفى إيثار أداة الاستفهام "من" التى تفيد النفى المطلق يتناسب مع المعنى البلاغى المراد من الآية وهو النفى ، وفيه إظهار هيمنة الله على الوجود ، وبسط سلطانه المنيع على الكون ، لذا جاء التعبير بالفعل المضارع " يَمْلِكُ " ليعم النفى كل الأزمان ، فهذه الحقيقة ليست خاصة بهم وبزمانهم ، ولكنها حقيقة مستمرة ، فلا أحد يملك رد قدرة الله مهما بلغ من أسباب القوة والجرأة التى تجعله يتناسى هذه الحقيقة ، وقد ظهر ذلك جليا من ظهور الطغاة والجبابرة فى جميع الأزمنة والعصور التى توالت منذ نزول القرآن الكريم ، وإلى يومنا هذا ، وسوف تستمر تلك الحقيقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النور آية : ٢٤].

والمقصود بالملك القدرة والاستطاعة ، وفى تخير مادة الملك ، لأن فيه إمساك بقوة وهو حفظ عن حزم ، وملكت الشىء إذا دخل تحت ضبطك دخولاً تاماً ، ففيه قدرة واستطاعة دائمة لا تكون لغير الله تعالى [١].

"ودلالة المضارع – هنا – هى دلالة الاسم فى الدوام والاستمرار، لا من حيث الوضع اللغوى، ولكن بدلالة المقام والواقع، فلا أحد يملك رد أمر الله إذا جاء"[٢].

وقيد الجملة بالجار والمجرور "لكم" تذكيراً بأن هذه الآية نزلت فى المخلفين الذين قالوا هذا القول ، لذا توجهت لهم خاصة ، ومن على شاكلتهم عامة .

وقوله : " مِّنَ اللَّهِ" ليبين أن الأمر كله يرجع إليه – سبحانه – وأن الاستغفار الذى طلبوه من الرسول – ﷺ– يقع بيت يدى الله – عز وجل – يفعل ما يشاء ، وفى هذا تخويف لهم من عقابهم على تخلفهم عن الخروج مع الرسول – ﷺ– وكذبهم فى طلب الإعتذار.

وجاء المفعول مؤخراً مع تنكيره فى قوله: " شَيْئًا " ليفيد العموم والشمول ، فلا أحد يملك مع الله شيئاً حقر أو عظم.

فكلمة " شَيْئًا " لها جمالها فى مكانها المقسوم لها فى القرآن الكريم .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [٣].

وقد حاول الأدباء استخدامها لكنها جاءت قلقة فى موضعها ومنهم المتنبى الذى قال:

لو الفلك الدوار ابغضت سعيه ∴ لعوقه شىء عن الدوران [٤]

---

(١) المفردات : بتصرف ص ٤٧٢.

(٢)التفسير البلاغى للاستفهام ١٣٩/٣.

(٣) سورة الكهف آية ٤٥ ، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة يونس : ٤٤]. وغيرها من عشران الآيات التى وردت فيها تلك النقطة وكانت متمكنة فى مكانها أفضل تمكن وأقواه".
من بلاغة القرآن ص ٦٤ .

(٤) ديوان المتنبى ٢٤٧/٤

" فإنك تحس بقلقها ذلك أنها لم توح إلى الذهن بفكرة واضحةلتستقر النفس عندها وتطمئن"(١).

والبناء التركيبى للجملة " قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا " يجعلنا نرجع إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢).

حيث زاد فى هذه السورة الجار والمجرور " لَكُم " .

" لأن ما فى هذه السورة نزلت فى قوم بأعيانهم وهم المخلفون ، وما فى المائدة عام لقوله : ﴿ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (٣).

وتأت جملة الشرط " إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا "مصدرة بـ (إن) الشرطية التى تفيد الندرة والقلة فى وقوع الحدث أو الشك فيه بالنسبة للمتكلم أو المخاطب لأنه " إن تستعمل فى المشكوك والموهوم والنادر " (٤).

لتظهر رحمة الله بخلقه ، فهو لا يجلب لهم ضراً محققاً ، ولكنهم يجلبونه لأنفسهم ، ويحرمونها من الخير والنفع .

فهم فى تخلفهم عن الخروج مع الرسول – ﷺ– حرموا أنفسهم من فضيلة شهود البيعة ، وما أنعم الله به على المؤمنين من الفتح المبين ، والنصر العظيم.

"وبهذا تنهض أساليب الشرط لأداء وظيفتها من خلال السياق " أداء لا يقل عن ظواهر أسلوبية أخرى " (٥).

وإرادته – تعالى – تجرى وفق علمه من إصابتهم بضر ، أو اعطائهم النفع .

وقدم ذكر "الضر" على النفع ؛ لأنه مطابق لحالهم ، فالذى منعهم من إجابة دعوة الرسول– ﷺ– لهم بالخروج هو الخوف من القتل أو الأسر.

---

(١) من بلاغة القرآن ص ٦٤.
(٢) سورة المائدة آية ١٧.
(٣) أسرار التكرار للكرمانى ص ١٩٤ ، ١٩٥
(٤) معترك الأقران ٥٨٤/١ ، والمطول ص ١٤٥ .
(٥) التصوير البيانى فى شعر المتنبى ص ١٢٥ .

وفيه زجر لهم وتخويف على ما فعلوا .

وذكر النفع بقوله : " أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا " ليعطى التكرار مع التشابه فى البناء التركيبى حيث تنكير " ضراً ونفعا" : التأكيد على أن الله وحده يملك القدرة على هذين الأمرين ، وأن الخلق عاجزون عن أن يملكوا شيئاً حال الضر أو النفع .

فقد اكتست الجملة بحسن التقسيم، فلا أحد يملك بين هذين الحالتين حال آخر، وكان الطباق بين الضر والنفع مؤكداً لهذا .

وارتبطت الجملة فى مضمونها بفن اللف والنشر(١)، ففى قوله " فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا" لف حيث جمع بين الضر والنفع فى لفظ " شَيْئًا " التى تزيد المعنى تأكيد على بعدها المطلق ، فلا يظن أحد أن يملك لهم أى شىء فيه ضرهم أو نفعهم ، والنشر فى قوله : " إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا".

والتقدير " فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً ومن يحرمكم من النفع إن أراد بكم نفعاً "(٢).

وتختتم الآية بقوله تعالى :" بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ".

إن معنى الإضراب الذى يبرز من "بل" يجعل الآية فى ترابط من بدايتها إلى خاتمتها ، فهى تذييل(٣)، مقرر لمضمون الكلام السابق وفيه ، تهديد لهم على موقفهم من الرسول – ﷺ–.

وإن الله محيط علمه بكل ما حدث منهم منذ البداية ، لذا جاء التعبير بالفعل الماضى "كان" محققاً ومثبتاً هذا المعنى .

---

(١) أسلوب اللف والنشر من شأنه أنه يهيئ النفوس ويثير الانتباه لتبقى الفائدة ، فإذا ذكرت ، تم الغرض واستقام المراد . ينظر لباب البديع : ٢/ ١٦٢ .

(٢) لغة المنافقين : ٢/ ١٦٢.

(٣) وللتذييل فى الكلام موقع جليل ، وكان شريف خطير ، لأن المعنى يزاد به انشراحاً والمقصد " انفتاحاً". ينظر : الصناعتين ص ٣٧٣.

وفى تعريف المسند إليه "الله " باسمه الجامع لكل صفات الجلال والتعظيم ، ليبث فى قلوبهم الرهبة والخوف من فعلهم مع دفعهم للتفكير فى حقيقة علاقتهم بخالقهم ؛ لأنه خبير بما يعلمون .

وجاء العموم الدلالى المستفاد من "ما" مع إيثار لفظ "يعلمون "دون" ما يفعلون" ، وكذا إيثار صيغة الخطاب حتى يكون امتداداً للاستفهام فى قوله " فَمَن يَمْلِكُ لَكُم " . وتقديم" بِمَا تَعْمَلُونَ " على متعلقه " خَبِيرًا " لبيان الاهتمام بعلمهم.

ويأت المسند " خَبِيرًا " على وزن فعيل مبالغة فى إحاطته – عز وجل – ومعرفته التامة بما يعملون .

وناسب ختام الآية بهذه الصفة ؛ لأنها وعيد وتهديد لهم ، وأن ما قدموا من أعذار على ألسنتهم كلها أسباب مختلفة كاذبة يعلمها الله – عز وجل – ولا تخفى عليه ، وسوف يجازيهم عليها ، وأول هذا الجزاء فى الدنيا فضحهم أمام الرسول – ﷺ– ومن معه من المؤمنين الذين لبوا نداء الجهاد والقتال فى سبيل الله لنصرة الله ورسوله .

وقد برز الالتفات فى الآية الكريمة حيث جاء الحديث عن هؤلاء المخلفين من الأعراب متكلمين :" شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا" .

وغائبين : " يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ".

ومخاطبين : " قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ".

وجاء نظم الآية بإسلوب سماه العلماء "شجاعة العربية" . حيث اقتبس ابن الأثير هذه التسمية من ابن جنى فى الخصائص[١]وتبعه العلوى"[٢] وعلق ابن الأثير[٣] بقوله:

---

(١) الخصائص ٢/ ٣٦٠.
(٢) الطراز : ٢/ ١٣١.
(٣) المثل السائر ٢/ ١٨١ .

" إنما سمى بذلك ؛ لأن الشجاعة هى الإقدام ، وذلك أن الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره ، ويتورد مالا يتورد سواه ، وكذلك هذا الإلتفات فى الكلام ، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات.

فالله – عز وجل – يُعَرِّض بهم من خلال النظم الذى يعرفون بلاغته لينبئ عن شجاعتهم فى استعمالهم اللغوى ، فهو دليل على حدة ذهن البليغ وتمكنه من تصريف الأساليب كيفما يشاء ، وهو بذلك شجاع لايخشى القتال ، ولا ترهبه ميادين النضال، فكيف بهؤلاء المخلفين الذين خافوا الضرر من الجهاد والأسر ، فهذا يخالف ما طبعوا عليه من قوة البلاغة والبيان .

وبهذا بلفت الله – عز وجل انتباههم ، ويوقظ مشاعرهم ، ويهز وجدانهم إلى أن ما بدر منهم مخالف لطبيعتهم وفطرتهم العربية .

" فالإلتفات فى الأسلوب ضربة على أوتار النفس يزيدها تنبيهاً وإيقاظاً أو هزاً أو تحريكاً "(١).

وقد جعل الزمخشرى للإلتفات بلاغة عامة تأتى فى كل صورة ، وهى جذب الانتباه حيث لا يتوقع المتلقى هذا التحول فى الكلام ، وبلاغة خاصة بكل سياق حسب ما يشيعه المقام ،وما يستنبط من نظمه من دلالات خاصة.

وهذا متحقق فى قوله ؛ "لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظاً للإصغاء إليه ، من إجرائه على أسلوب واحد ، وقد تختص مواقعه بفوائد"(٢).

وبتطبيق قوله على الآية الكريمة نلمح الفائدة من الإلتفات التى تختص بنظم الآية : حيث إظهار ضعف هؤلاء المخلفين وإظهار جبنهم فى ميدان القتال بما يتنافى بما هو معلوم ومعهود ومتعارف على العربى الأصيل الذى يستخدم أسلوب

وعبر عن الالتفات بالصرف ، فقال ابن وهب " وأما الصرف : فإنهم يصرفون قول المخاطب إلى الغائب ، ومن الواحد إلى الجماعة " ينظر البرهان فى وجوه البيان ص ١٢٢ ، وأسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية د/ حسن طبل ص ٩٤.

(١) البلاغة القرآنية ص ٤٠٢.

(٢) الكشاف ٦ / ١٠.

الإلتفات فى كلامه لينبئ عن شجاعته فى نظمه لذا قال عنه العلوى : " إنه من العلوم العربية ، وهو أمير جنودها ، والواسطة فى قلائدها وعقودها "(١).

ويصرح الله – عز وجل – بالعلة الحقيقية لتخلفهم عن الخروج مع الرسول – ﷺ– فقال تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾.

تأت هذه الآية لتتصل بسابقتها اتصالاً عضوياً ، فهى تتمة لها ، لذا فصل بينهما وتعين ذلك لما بينهما من اتصال واتحاد فى المعنى ، حيث وقعت بدل اشتمال من قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

وأعيد خحرف الإضراب "بل"تأكيد لتحقيق معنى الإضراب الانتقالى من غرض إلى غرض . ففى الآية السابقة أظهر أسلوب الالتفات حقيقة موقفهم إيحاء لا تصريحاً، وإيهاماً لا توضيحاً ، فجاءت الآية الكريمة لتصرح بالعلة الحقيقية فى تخلفهم ، فهو يجمع بين التلميح والتصريح ، ليظهر بشاعة ما ارتكبوه فى حق أنفسهم ، ومدى كراهيتهم للرسول – ﷺ– ومن معه من المؤمنين.

وقوله : " ظَنَنتُمْ " والظن شك ويقين إلا أنه ليس يتعين عيانا، إنما هو تعين بتدبر "(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهْ﴾(٣). أى: علمت فالمخلفون من الأعراب تدبروا بعقولهم ، وقر هذا فى نفوسهم وحسن فيها ألا يرجع الرسول – ﷺ– والمؤمنون إلى أهاليهم وأقاربهم ، وليس ما زعموا وطلبوا من أجله الاستغفار وهو قولهم " شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا " .

وفى تخير مادة الظن : ليؤكد على حقيقة كراهيتهم للرسول – ﷺ– والمؤمنين ، ورغبتهم فى أن يستأصلهم المشركون فلا يرجعوا إلى ذويهم أبداً.

---

(١) الطراز ٢/ ١٣١ ، ١٣٢.
(٢) لسان العرب ٤/ ٢٧٦٢ مادة ظن.
(٣) سورة الحاقة آية ٢٠.

ودلالة : "لن" تؤكد على هذه الكراهية ، وترقبهم لإيذاء الرسول لما تحلمه من تأكيد النفى ذاتيا مع تأكيد دلالتها من خلال الظرف "أبدا" لأن ظنهم كان قوياً.

إن حرصهم على إلحاق الأذى بالرسول – ﷺ– ومن معه ، لذا تخيروا من البناء التركيبى ما يحقق هذا المعنى فعبروا بلفظ " يَنقَلِبَ" لأن أصله : تحويل الشىء من وجهه، وصرفك إنساناً تقلبه عن وجهه الذى يريده [١].

فالذى يمنع الرسول – ﷺ– من الرجوع قوة خارجية تقضى عليهم وتستأصلهم وهم المشركون .

وجمع بين الرسول – ﷺ– والمؤمنين تحت حكم واحد وهو " يَنقَلِبَ" لتعطى تلك الثنائية إظهاراً لمكانته – ﷺ– بين صحابته ، وأنهم يحرصون على سلامته ويفدونه بأرواحهم ، وهذا ما سيعرضهم لمخاطر أشد .

وذكر الغاية بقوله : " إِلَى أَهْلِيهِمْ " ليظهروا أن أقاربهم وعشائرهم كانوا ينتظرون عودتهم ، ولكنهم لن يعودوا إليهم ، وها ما سيجعل المشركين يتمكنون منهم ، ويفتكون بأهليهم بعد القضاء عليهم.

ويكشف الله – عز وجل – عن مكنون هؤلاء المخلفين من الأعراب فقال : ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾.

" الزين اسم جامع لكل ما يتزين به "[٢].

وجاء الفعل " زُيِّنَ " بالبناء للمجهول ، ليجعل التزيين من الله – عز وجل – أو من الشيطان ، وقد ورد فى القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [٣].وقال تعالى : ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾ : [٤].

---

(١) لسان العرب ٥/ ٣٧١٣ مادة قلب .
(٢) لسان العرب ٣ / ١٩٠٣ مادة زين.
(٣) سورة النمل آية ٤.
(٤) سورة النمل آية ٢٤.

فقد جعل هذا الظن الذى ارتاحت له نفوسهم وحسن فى قلوبهم ، هناك قوة مجهولة زينته لهم ، فلم يفرضوا غيره من الاحتمالات ؛ لأنه محبوب لهم ، وهم مندفعون إليه اندفاعاً ؛ لأنهم تحت سيطرة هذه القوة المجهولة .

وكان التصوير الكنائى[1] معبراً عن قبولهم واستحسانهم لهذا الظن، والذى تعمق فى قلوبهم وعقولهم. وفى الإشارة بالبعيد " ذلك" المراد به الظن المفهوم من قوله "ظَنَنتُمْ"، فهو يشير إلى أن هذا الظن وإن تمكن منكم ، فإنه لن يتحقق ، فهو بعيد كل البعد عن الرسول – ﷺ– ومن معه من المؤمنين ، وفيه تنديد وتقريع لهم على بغضهم للرسول والمؤمنين .

وقوله فى : " فِي قُلُوبِكُمْ " يطلق القلب عل الفعل كما ورد فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2]. أى عقل ولكنه ذكر لفظ القلب لأمرين .**الأول** :إظهار مدى تمكن ظنهم فى عقولهم وقلوبهم ، وميلهم النفس لهذا الظن ، واندفاع عقولهم نحوه

الثانى : لو تركوا أنفسهم لفطرتهم ، وراجعوا أنفسهم ، لعلموا أن الله ناصر رسوله والذين آمنوا معه .

لكنهم لم يصلوا إلى تلك الحقيقة لأنهم ظنوا بالرسول – ﷺ– ظن السوء ، لذا قال تعالى : " وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ".

فلم يعطوا أنفسهم مهلة للتدبر والتفكير فى حقيقة الأمر بعيداً عن الميل القلبى، والبغض ، والكراهية .

---

(١) الكنابة ينتقل فيها من اللازم إلى الملزوم قال عنها الجرجانى " إنها لفظ أريد به ملزوم معناه الوصفى من حيث هو كذلك .
ينظر : الاشارات والتنبيهات للجرجانى ص ٢٣٨ تحقيق د/ عبد القادر حسين .
سر الفصاحة ص١٩٢.
وهى واسطة بين الحقيقة والمجاز، لأن قرينتها لا تمنع من إرادة المعنى الأصلى: ينظر: حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ٢٣٨/٤، ونظرات فى البيان للكردى ص ٢٤٦ .

(٢) سورة ق آية ٣٧.

وجاء التكرار مؤكداً لاستحسانهم لهذا الظن " وَظَنَنتُمْ ظَنَّ " .

وفى تعريف الظن بالإضافة " ظَنَّ السَّوْءِ " للعهد الذكرى ، وهو عام ذكر بعد الظن الخاص فى قوله : " بَلْ ظَنَنتُمْ ".

والمعنى : ظننتم ظن السوء بالدين وبمن بقى من المؤمنين لأنهم جزموا باستئصال أهل الحديبية وأن المشركين ينتصرون ثم يغزون المدينة بمن ينضم إليهم من القبائل(١).

والقصد من الجملة الخبرية : التسجيل عليهم ببيان حقيقة موقفهم مع توبيخهم عليه .

وإذا كان الله – عز وجل – أشار إلى حقيقة ظنهم بالسوء ، فقد أشار إلى بيان حقيقتهم فقال : " وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا "جاء البناء التركيبى بالفعل "كان" الذى يؤكد ويثبت هذا الوصف لهم.

وفى خطابهم ليتوجه الحديث لهم ، وأنهم المقصودون بهذا الوصف وفى تنكير "قوماً" للتحقير والتقليل من شأنهم .

وقيدهم بالوصف " بُورًا " أى هلكى ، فقد تحقق وثبت فى علم الله تعالى أنهم هالكون ، لفساد ما يعتقدون ، فإن قلوبهم تخلو من حسن الظن بالله – عز وجل – فهى فاسدة هالكة.

وفى البناء الصوتى للفظ"بُورًا" يشعر الامتداد الصوتى الذى يكتسب من حرف الواو ، والألف بتماديهم فى غيهم وضلالهم وكرههم للرسول –ﷺ– والمؤمنين ؛ لذا جاء وصفهم معبراً عن حالهم من خلال لفظ "بُورًا" فهو فى الأصل " مصدر مثل هُلك بضم الهاء ويتصف به الواحد المذكر وغيره ، أو هو بائر كعائذ وعُوذ "(٢).

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦ / ١٦٥.
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٦٠.

ونتأمل النظم القرآنى لنجد أن الله – عز وجل – فى حديثه عن النفاق يظهر أثره السيء على الفرد والمجتمع، وما يحدثه اضطراب العقيدة فى النفس البشرية من ضعف يصل بصاحبه إلى الخوف من الجهاد فى سبيل الله، والرغبة فى القعود عن القتال، والتعلل بعلل كاذبة. وما كان المؤمن الحق ليتصف بذلك.

وقد وصف الله – عز وجل – هؤلاء المخلفين وصفاً يخصهم بقوله "وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا " فاسدين فى أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لذا استحققتم الهلاك.

وإذا كان هؤلاء يحاولون إظهار الإيمان وستر الكفر ، فقد أظهر لهم الله حقيقتهم ، وأن نفاقهم إنما هو إعراض واضح وظاهر عن الإيمان بالله

قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾.

عطفت الآية على سابقتها للتوسط بين الكمالين فقد اتفقتا فى الخبرية لفظاً ومعنى مع وجود الجامع.

وجاء التركيب الخبرى محققاً لغرضين . **الأول** : تحذير المنافقين من عاقبة نفاقهم ، وأنه سيقودهم إلى الكفر الذى سيكون عقابه شديد وهنا تتجلى الرحمة الإلهية ، فالله – عز وجل – يظهر رحمته بعباده حتى وإن وصفوا بهذا الوصف. **الثانى** : إعلام للمؤمنين بخطورة هؤلاء المنافقين على الإسلام وتنفيرهم من هذا الوصف ، ليأخذوا الحيطة والحذر منهم .

وتبدأ الآية الكريمة بأسلوب الشرط " وَمَن لَّمْ يُؤْمِن" وكانت الأداة "من" لتجعل الحكم عاماً لا ينحصر فى طائفة معينة ، ولا يتقيد بحدود الزمان والمكان ، فهو لا يختص بهؤلاء المنافقين الذين أعرضوا عن الجهاد فى سبيل الله مع النبى – ﷺ– وصحابته، وإنما هو حقيقة ثابتة ومقررة لمن يسلك مسلكهم ، وينتهج نهجهم ، وفعل الشرط " لَّمْ يُؤْمِن" نفى للإيمان الذى يلزم منه ثبوت الكفر ، ليكشف حقيقة المنافق، وأنه لا يصرح بكفره ، ولكنه يخفيه ، فجاء اللفظ موافقاً لحال المنافق ، والأداة " لَّمْ " تقلب حقيقتهم المعلنة ، وتجعل وصف الكفر ملازما لهم .

وقيد نفى الإيمان " بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ " ليحقق ثنائية متلازمة من أول السورة كما فى قوله تعالى : ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ .

وعطف الرسول – ﷺ– على لفظ الجلالة تشريفاً له – ﷺ– وأنه لا يكتمل الإيمان إلا بالجمع بين الإيمان بهما .

وجاء جواب الشرط على غير المتوقع، فالذى ينتظره المتلقى وصف من لم يؤمن والتقدير :فإنه كافر ،فإذا بالجواب يبرز عقاب عدم الإيمان بالولوج فى نار مخصوصة، فقال تعالى: ﴿ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾. عطف الجواب بالفاء ليحقق السرعة فى إظهار عاقبة عدم الإيمان ، وتعريف المسند إليه بضمير التكلم "إنا" لبث الرهبة والخوف من هذا المصير ، فإن القول صادر من رب العزة معلناً عنه متكلماً ، وفيه إيقاظ لتلك القلوب والعقول الكافرة والغافلة عن عاقبة النفاق ، ويأت الفعل : " أَعْتَدْنَا " معلناً ثبوت وتحقق الجزاء من رب العزة سبحانه متكلماً ، فهى نار محققة ثابتة معدة ومجهزة لهم تنتظر ولوجوهم فيها ، وفى هذا وعيد للكافرين وتحذير من هذا المآل.

ويؤكد الله – عز وجل – على تحقيق هذا المصير من خلال التقديم والتأخير فى البناء التركيبى ، حيث قدم الجار والمجرور " لِلْكَافِرِينَ " فالسعير خصصت لهؤلاء الكافرين وحدهم.

ومما يلفت الانتباه إظهار لفظ "الكافرين" على خلاف مقتضى الظاهر، والتقدير " أعتدنا لهم" ليؤكد ويقرر الحقيقة ، وهى أن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر ، وعاقبته تلك السعير جزاء له على كفره.

وتنكير لفظ " سَعِيرًا " أفاد أمرين. **الأول** : التهويل فلا أحد يستطيع الوقوف على حقيقتها ، فهى ليست كالنار التى يعرفونها فى دنياهم . **الثانى**: إنها نار مخصوصة معدة ومجهزة ومسعرة لهم ، ففى الجملة تجريد[1] حيث إنه جرد من نار جهنم ناراً أخرى تسمى " سَعِيرًا " مبالغة فى إظهار العذاب لهؤلاء الكافرين .

---

(١) ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ [سورة الليل آية ١٤].

إن هذه الآية تحمل بين طياتها الترهيب الذى يبث الخوف فى نفوس المنافقين وجاء جانب الترغيب فى قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفتح : آية ١٤] .

ولم يذكر الله – عز وجل – عاقبة الإيمان بالله ورسوله ، وجعلها مطوية تفهم ضمناً من السياق وتقدير الكلام " ومن آمن بالله ورسوله فإن له الجنان".

وجعل الله – عز وجل – النظم متوجها إلى هؤلاء المنافقين الذين وقعوا فى دائرة الكفر ، ومع ذلك تتجلى رحمة الله بهم فلم يعالجهم بالعقاب على ما اقترفوا ، بل يكشف لهم قبح صنيعهم ، ويعلن لهم عاقبتها ليفتح لهم طريق التوبة يتلمس منهم وروده ، فيخبر عن ذاته العلية بأن له ملك السموات والأرض.

وجاء ذلك فى قالب الأسلوب الخبرى وجعل الكافرين منزلين منزلة من ينكر تلك العاقبة لإصرارهم على الكفر ، فجاءت الآية الكريمة مؤكدة هذا المصير ، ولم يكن التأكيد عبر المفردات اللفظية ، ولكن قدم لهم دليلاً علمياً ، وبرهاناً ساطعاً فقال تعالى : " وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ " حيث جمع بين أسلوب القصر[١].والطباق ، فقدم لفظ الجلالة الجامع لكل صفات الجلالة والكمال ، وقصر ملكية السماوات والأرض على الله – عز وجل – قصراً حقيقياً قصر صفة على موصوف، وكان التضاد بين السماوات والأرض ، معلناً ذاك التضاد فى موقف المنافقين فهم يعلمون بملكية الله للسماوات والأرض ومع ذلك يصرون على النفاق الذى يؤدى بهم إلى الكفر.

وكانت تلك الجملة الخبرية توطئة للفت انتباههم إلى حقيقة أخرى.

وهى قوله تعالى: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ففتح لهم باب التوبة ، وقد صاغ الله – عزوجل – تلك المغفرة والعذاب فى زمن الفعل المضارع" يغفر ، يعذب " ليحقق التجدد والاستمرارية للمغفرة والعذاب مع إفادة العموم الدلالى النابع من لفظ "يشاء" مع تكراره .

---

(١) القصر بطريق التقديم " بعتبر القصر بهذا الطريق حجر الزاوية فى الكشف عن الصدق الفنى والتناسق الفنى ... ولهذا الطريق سحره فى توصيل المعانى .
ينظر : بلاغة القصر دراسة نقدية تحليلية أ.د/ عبد العزيز أبو سريع . ص ١٦٢ ، ١٦٣.

وزين الكلام بحسن الترتيب فقدم المغفرة " ليتقرر معنى الإطماع فى نفوسهم فيبتدروا إلى استدراك ما فاتهم"(١).

فالله – عز وجل – يوقظ دواعى الخير التى قد تكون فى قلوب هؤلاء المنافقين للطمع فى رحمته ومغفرته – سبحانه –

وللتأكيد على المغفرة ختمت الآية بإبرازها حيث قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تذييل ومؤكد لمضمون الكلام السابق مع تحقق المغفرة والرحمة من خلال زمان الفعل الماضى "كان" وإظهار المسند إليه معرفاً بالعلمية "الله" وجعل المغفرة والرحمة فى صيغتى المبالغة " غَفُورًا رَّحِيمًا" فهو كثير المغفرة والرحمة ليؤكد على الحديث القدسى " رحمتى سبقت غضبى" (٢).

إن الله – عز وجل – يقوم سلوك المرء فى الحياة ، ويعلمنا كيفية التربية الصحيحة من خلال منهج قرآنى ، فهو يجمع بين الترهيب والترغيب ، فلا يجعل المرء منحصراً فى التفكير فى العذاب واليأس من رحمة الله ، ولا مستغرقاً فى الرحمة مندفعاً إلى التوكل ، غافلاً عن الطاعات ، بل يمزج بين المغفرة والعذاب ليبث فى النفوس البشرية الخوف والرجاء " فهما خطان متقابلان من خطوط النفس ، يوجدان فيها متجاورين مزدوجى الاتجاه .. والخوف والرجاء لقوتهما تلك وتشابكهما واختلاطهما بالكيان البشرى كله فى أعماقه ، يوجهان فى الواقع اتجاه الحياة ويحددان للإنسان أهدافه وسلوكه ، ومشاعره وأفكاره، فعلى قدر ما يخاف ونوع ما يخاف.. وعلى قدر ما يرجو ونوع ما يرجو يتخذ لنفسه منهج حياته ، ويوفق بين سلوكه وبين ما يرجو وما يخاف "(٣).

---

(١) التحرير والتنوبر ٢٦ / ١٦٦ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء حديث ٧٤٢٢ ، ٤٤٣/٨ .

(٣) دراسات فى النفس الإنسانية ص ٧٦.

المبحث الثانى

الأعراب والغنائم

قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .الآيات ١٥ :١٧

المبحث الثانى

الأعراب والغنائم

قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

توضح الآية الكريمة كذب المخلفين من الأعراب ، فعندما دعاهم الرسول- ﷺ- للخروج إلى أهل مكة اعتذروا بالإنشغال بالمال والأهل ، ولكن عندما علموا بخروجه - ﷺ- إلى غنائم يتوقعونها طلبوا الخروج من تلقاء أنفسهم ، ونسوا الأموال والأهل ، فهم حريصون على الجانب المادى، فتخلفهم كان للإنشغال بالمال والأهل ، وبسبب الغنائم يريدون تبديل كلام الله لينالوا مظهراً من مظاهر الجهاد ، إنه الغنيمة دون غيرها.

وتبدأ الآية بقوله : " سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ " السين الداخلة على فعل القول " سَيَقُولُ " توضح أن هذا الوعد سيتحقق فى المستقبل القريب ، وهو من الأمور الغيبية التى أخبر بها القرآن الكريم ، فقد وعد الله أهل الحديبية أن يعوضهم عن عدم دخول مكة مغانم خيبر .

---

(١) سورة الفتح ١٥ .

قال القرطبى [١]: إن الله – تعالى – جعل لأهل الحديبية غنائم خيبر لهم خاصة عوضاً عن فتح مكة إذا رجعوا من الحديبية على صلح.

وقد ذكر المفسرون أنها مغانم خيبر ، لأنها كانت بعد الحديبية بأقل من شهرين ، فالنبى – ﷺ– لما رجع من الحديبية أقام شهر ذى الحجة سنة ست ، وأياماً من محرم سنة سبع ، ثم خرج إلى غزوة خيبر ، وكانت حصونها آخر ما بقى من الجزيرة العربية لجأ إليها بعض يهود بنى قريظة وبنى النضير ممن أجلوا عن المدينة من قبل .

وتعريف المسند إليه " الْمُخَلَّفُونَ " بأل العهد ؛ لذا استغنى عن وصفهم بقوله من الأعراب "أى: المخلفون المذكرون للتأكيد على إظهار كذبهم فى اعتذارهم عن التخلف .

وقوله : " إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ".

إذا ظرف زمان للمستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بقول أى: سيقولون وقت انطلاقكم.

وتشير مادة الانطلاق إلى لهفتهم الشديدة إلى الغنائم وحرصهم عليها، فهم يتوجهون إليها انطلاقاً رغبة ولهفة فى الإسراع.

وقيد الانطلاق بالجار المجرور " إِلَى مَغَانِمَ " ليحقق أمرين:

الأول : تنكير وجمع لفظ مغانم الذى يحقق أنهم يتلهفون على أى مغانم يمكن أن ينالوها ، كما يشير إلى تعظيمها فى نفوسهم لحرصهم الشديد عليها ولفظ " مغانم" جمع مغنم اسم مشتق من غنم إذا أصاب ما فيه نفع.

الثانى : أن لديهم اليقين بتحقيق النصر حيث إن الانطلاق كان إلى غزوة خيبر ، ولم يحدث قتال بعد حتى تجمع الغنائم، ولكن عبر ذلك بالمجاز المرسل لعلاقة ما سيكون حيث أطلق لفظ الغنائم على الخروج للغزوة.

---

(١) تفسير القرطبى ١٦ / ٢٧١.

وبلاغته للتأكيد على تحقيق نصر الله – عز وجل – وإن المغانم حاصلة لا محالة بدليل قولهم "لِتَأْخُذُوهَا" فقد انتهى أمر يهود خيبر وأصبحت ممتلكاتهم فى قبضة المؤمنين غنيمة لهم .

وتوضح الآية مقول القول " ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ " أى اتركونا ودعونا .

وهو فعل أمر أصل "وزره – يذره" وهو يشعر بأن النبى – ﷺ– وصحابته سيقنعونهم من الخروج إلى الغزوة ؛ لذا طلبوا الإتباع استنزالاً، لإجابة طلبهم ، فهم يريدون الخروج معهم كالأتباع .

وفى انتقال النظم القرآنى من الأسلوب الخبرى إلى الأسلوب الإنشائى الأمر ، ليحدث تنوعاً فى الأساليب يلفت من خلاله ذهن المتلقى للتفكير والتأمل فى موقف هؤلاء المخلفين ، والذى يظهر المفارقة بين موقفهم وموقف المؤمنين ، فهم فى موقف الخضوع والإتباع الذى يظهر ضعفهم أمام المؤمنين المجاهدين الذين نالوا علو الشرف والمكانة وقد ظهر هذا جليا من خلال التماسهم إتباع المؤمنين دون مصاحبتهم ، فلم يقولوا نريد مصحابتكم ، أو نريد أن نكون معكم ، فلم يقفوا موقف الأنداد الذين يكون طلبهم مصاحبة ، ولكنهم وقفوا موقف الضعف والاستكانة ، فقد استشعروا فى أنفسهم تلك الحقيقة وأعلنوها أمام المؤمنين من أجل تحقيق غرض دنيوى ، حتى إنهم لم يوضحوا جهة الإتباع .

والتقدير : ذرونا نتبعكم إلى خيبر ؛ لأن اهتمامهم ينصب على جمع الغنائم فقط .

وبذلك يكشف الله – عز وجل – عن حقيقة موقفهم ، وأنهم تركوا الجهاد تقاعساً ، وعندما أرادوا الجهاد لم يكن لجوهره ، وإنما سعياً لمظهره المادى ، ورغبة فى تبديل كلام الله .

قال تعالى : " يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ".

الفعل المضارع أكسب السياق الحيوية من خلال نقل تلك الحقائق الماضية ، والمواقف الغابرة إلى مشهد واقعى محسوس فكأننا نشاهده بأعيننا ، ونلمح دفاع

الطرفين عن موقفهما . الْمُؤْمِنُونَ من منطلق الإيمان بربهم وتعلقهم بالجهاد فى سبيله .

المخلفون : من منطلق حب الدنيا ، والتعلق بماديتها فإرادتهم مخالفة كلام الله متجددة مستمرة ، لأنه أمر مطبوع فى نفوسهم.

وقوله : " أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ".جاء البناء التركيبى بدخول أن على الفعل المضارع "يُبَدِّلُوا" مع التركيب الإضافى " كَلامَ اللَّهِ " للتأكيد على رغبة المنافقين وجرأتهم على أحكام الله ، لتعلقهم وحرصهم على النفع الدنيوى .

وكان التصوير الاستعارى (١) مخققاً لها التأكيد حيث شبه كلام الله – عز وجل – بالشىء المادى المحسوس الذى يمكن أن يوضع فيه شىء مكان الآخر ، وحذفه ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو التبديل على سبيل الاستعارة المكنية.

وهو بذلك يثير فى نفس المتلقى مشاعر النفور من تلك الفئة التى تسعى إلى الإستهانة بكلام الله وتبديله فى مقابل النفع الدنيوى ، وليس من أجل إعلاء كلمة الله .

والمراد من "كلام الله " ما أوحاه الله إلى رسوله– ﷺ– من وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر لهم خاصة.

وتنتقل الآية انتقالاً فيه حسم وقوة لتربط بالجملة السابقة برباط معنوى " قُل لَّن تَتَّبِعُونَا "حيث تعين الفصل بين الجملتين وذلك لكمال الانقطاع مع عدم إيهام الفصل خلاف المراد.

فالأولى خبرية لفظاً ومعنى : " يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ " .

والثانية : إنشائية لفظاً ومعنى : " قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ".

---

(١) يذكر الرمانى " أن الاستعارة الحسنة هى التى توحد بلاغة بيان لا تنوب منابه الحقيقية ، وذلك أنه لو كان تقوم مقامه الحقيقة كانت أدل به ، ولم تجز الاستعارة .
ينظر : النكت ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز ص ٧٩ .
وبذلك ينص صراحة على أن أسلوب الاستعارة أقوى وأبلغ من أسلوب الحقيقة .
ينظر : القرآن والصورة البيانية د/ عبد القادر حسين ص ١٩٨ .

ويأت تنوع أسلوب الصياغة : لنقل المتلقى مرة أخرى من الأسلوب الخبرى إلى الأسلوب الإنشائى الأمر:رداً من الله – عز وجل– على طلبهم " ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ".

وجاء مقول القول نفياً للإتباع الصادر منهم"لَّن تَتَّبِعُونَا" بدلاً من النهى "لا تتبعونا" وهو الظاهر وذلك لمعنى لطيف: " وهو أن النبى– ﷺ– بنى على إخبار الله – تعالى – عنهم بالنفى ، لوقوفه وقطعه بصدقه ، فجزم وقال : "لَّن تَتَّبِعُونَا" ، فلو أردتم واخترتم لا يتم لكم، وذلك لما أخبر الله تعالى عند الإنصراف من الحديبية"(١).

وجاء النفى مطلقاً وحاسماً ، لأنه متعلق بتشريع الله وأحكامه وحفاظاً له من التبديل والتغيير .

– وجاءت جملة : " فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا " تعقيباً سريعاً مظهراً موقف المخلفين أمام النفى المطلق لإتباعهم ، والذى كان كفيلاً بتحولهم من طلب التماس الإتباع إلى إظهار العداوة والكراهية متحدثين عنها معلنين لتلك الكراهية والحقد للمؤمنين بعد أن كانوا يخفون ذلك فى قلوبهم فى الآية الثانية عشرة حيث قال تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾.

وقولهم : " بَلْ تَحْسُدُونَنَا " أفادت الإضراب ، وإبطال قول الرسول – ﷺ– " لَّن تَتَّبِعُونَا " فقد جعلوا حسد المؤمنين لهم هو السبب فى منعهم من الإتباع ، وجاء ذلك متسقاً مع ظنهم السوء من ناحية ، وتزيين ذلك فى قلوبهم من ناحية أخرى.

وأرادوا من الحسد : إظهار حرص المؤمنين على الانفراد بالمغانم وكراهية مشاركتهم فيها.

لذا جاء الرد عليهم حاسماً مستخدماً فيه أداة الإضراب نفسها "بل" ولكن حدث مغايرة فى الإسناد حيث قال تعالى: "بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلا قَلِيلا".

(١) لغة المنافقين ٢/ ١٦٩.

فالمخلفون ظهروا فى الإضراب السابق " فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ". متحدثين، وفى هذه الجملة متحدث عنهم ، والفرق بين حرفى الإضراب:

الأول : إضراب معناه رد أن يكون حكم الله أن لن يتبعوهم وإثبات للحسد " فسيقولون بل تحسدوننا".

الثانى : إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أعم منه وهو الجهل وقلة الفقه "(١).

فدلالة الإضراب الثانى " بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلا قَلِيلا " تنقل المعنى نقلاً حاسماً فيه قوة ، وبأن الفعل الماضى مع إبراز المخلفين من خلال الضمير "كانوا " لتضفى على المعنى التحقق والثبوت ، ويجعل المتلقى يتعايش مع النص القرآنى ينتظر ما هو المحقق الثابت فى حق هؤلاء المخلفين ، فإذا بالفعل المضارع " لا يَفْقَهُونَ " يكسبه التجدد والاستمرار فهو ملازم لهم ، وتكتمل الجملة بإثبات الاستثناء ، ليكون أسلوب القصر عن طريق النفى والاستثناء ، ليؤكد على أنهم يجهلون وينكرون هذا الحكم الثابت المحقق الملازم لهم.

وقصر فهمهم على الفهم القليل وهو موصوف على صفة حيث إن " قَلِيلا " وصف للمستثنى المحذوف ، والتقدير: " إلا فقها قليلا .

وبلاغة : التأكيد على قصور فهمهم ، وأنه مقصور على الأمور الواضحة ، ومن ذلك حرمانهم من اتباع المؤمنين فى غزوة خيبر مبعثه الحسد ، ولم يفهموا حكمته – تعالى – والسبب الحقيقى من وراء منعهم؛ لأن ذلك يلزمه الوقوف على دقائق الأمور ، والغوص فى أعماقها لاستنباط حقيقتها .

وبالتأمل نلحظ أن الله – عز وجل – نفى عنهم الفقه والفهم دون الإيمان ، لأنهم كانوا مؤمنين ، ولكن لتعلقهم بالدنيا وملذاتها جهلوا شرائع الله – عز وجل – وأرادوا تعديل كلامه – تعالى–، لذا لم يوصد الله – عز وجل – أمامهم الأبواب ، ولكنه أظهر

(١) الكشاف : ٦ / ٥.

لهم الطريق الصحيح ، والمنهج القويم الذى يسلكوا سبيله للظفر بمعية المؤمنين ، وينالوا الثواب الجزيل.

وقد ارتبطتا الآية الكريمة فى بنائها التركيبى مع الآية الحادية عشرة حيث قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الاعْرَابِ ﴾.

فقد بدأت الآيتان بفعل القول المسبوق بالسين ، وإظهار المسند إليه معرفاً باللام " سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ " ولكن ثمة فارق بينهما .

ففى الآية الحادية عشرة : إظهار لشخص الرسول – ﷺ– عبر كاف الخطاب "لك" لم يظهر فى الآية الخامسة عشر " سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ " لأن الآية الأولى فيها طلب للاستغفار منوط بشخصه– ﷺ– فهو المستغفر لهم دون غيره " فَاسْتَغْفِرْ لَنَا " كما أنهم لم يكونوا صادقين فى مطلبهم فطلبوا وساطة الرسول – ﷺ– **أما الآية الثانية** : فمطلبهم هو الغنائم والحرص عليها دون التعلق بمن يوجه له هذا المطلب ، كما أنهم صادقون فيما أرادوا ، لذا طلبوه مباشرة دون الحاجة إلى واسطة.

وتظهر المشابهة فى البناء التركيب للآيتين من خلال التعقيب على قولهم ، والذى يكشف موقفهم الحقيقى من العقيدة .

ففى الآية الأولى : " يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ " .

كان قولهم حديثاً باللسان لا عقيدة راسخة فى الوجدان .

والآية الثانية : " يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ".

إظهار المخالفة الصريحة لكلام الله – عز وجل – الذى يؤكد عدم استقرار الإيمان فى قلوبهم .

كما يبرز الالتفات فى الآيتين من التكلم إلى الغائب إلى الخطاب . ففى الآية الأولى تحدث عن هؤلاء المخلفين متكلمين : " شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ".

وغائبين : " يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ".

ومخاطبين : " قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ".

والآية الثانية متكلمين: " ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ".

غائبين : " يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ".

مخاطبين : " قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ".

وبذلك يشى النظم القرآنى بشىء من أسراره ، فبرغم اختلاف المعنى للآيتين إلا أنهما التقيتا فى التشابه فى البناء التركيبى لتثبت ارتباطها ببعضها ارتباط كشف وإيضاح وتعليل فلا يفهم تمام المعنى إلا من خلالهما وهذا يتحقق بالآية التالية .

قال تعالى : ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الاعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الآية ١٦ من سورة الفتح].

يخبر الله – عز وجل – بالعلة الحقيقية من الجهاد ليغير المخلفون فكرهم نحوه ، وبدأت الآية بالأسلوب الإنشائى الأمر الذى يشعر بالإلزام والوجوب ، وتتنوع الصياغة بين الأسلوب الخبرى فى الآية السابقة إلى الأسلوب الإنشائى فتعين الفصل لكمال الانقطاع ، والآيتان ترتبطان ببعضهما برابط عضوى فهما كالوحدة الواحدة.

– فالله – عز وجل – يظهر حقيقة هؤلاء المخلفين ، وأنهم لم ينسلخوا عن الإيمان ، ولم يكن تخلفهم عن الخروج فى الحديبية لنفاق ظاهر لكفر باطن ، لذا قدم لهم علاجاً تربوياً يظهر أبعاد موقفهم من طريقين .

الأول : تمثل فى الآية السابقة " سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ " .

وهو إدخال الحزن عليهم بحرمانهم من الغنائم فى غزوة خيبر .

الثانى : وهو تتمة للأول ، وما سيرد فى الآية الكريمة ، ويتمثل فى إدخال المسرة عليهم باستدراك ما فاتهم ، وبث الطمأنينة فى نفوسهم بأنهم سينالون مغانم فى غزوات أخرى ، ولن يكون هذا الحرمان مطلقاً ، ولكنه مختص بتخلفهم عن

الجهاد فى سبيله حين اعتذروا بغير عذر ، وحين طلبوا الخروج إذ لم يكن قتال ، وإنما لمجرد أخذ الغنائم.

وفى تكرار ذكر القبائل التى تخلفت بهذا المسمى" الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الاعْرَابِ" لتنكيرهم بقبح فعلهم ، وللمبالغة فى ذمهم عليه ، واستحضاره فى نفوسهم، ليعلموا أنه لن يزول عنهم إلا باستجابتهم لما أخبر الله به ، كما فيه حث للمسارعة لتحقيق الجهاد فى مفهومه الصحيح حتى يزول عنهم هذا المسمى.

وجاء مقول القول " سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ" دعوة للجهاد مقرونة بالسين دون إبراز الداعى حيث بنى الفعل للمجهول " سَتُدْعَوْنَ " اهتماماً بالدعوة ، وتأكيد على اتصافهم بالإيمان الذى يجعلهم على علم تام بالداعى ، وهو الله– عز وجل –

ومزية دخول السين على الفعل : إظهار أن الدعوة ستكون فى وقت قريب ، وعليهم الاستعداد لها حين يعلن عنها .

وجعل للدعوة غاية يوصل إليها وأوضحها من خلال الجار والمجرور "إِلَى قَوْمٍ " لتكتسب الصياغة التصويرية عن طريق الاستعارة التبعية فى الحرف ، وتنكير قوم ، لإبقاء الرهبة فى نفوس المخلفين منهم ، وإشعارهم بقوتهم لاستنهاض ما جبلوا عليه من شجاعة اللقاء ، ويؤكد ذلك من خلال التقيد بالوصف عبر التركيب الإضافى فقال " أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ " مع تنكير " بَأْسٍ " ووصفه بالشدة. والبأس معناه الشدة فى الحرب(١).

فالقصد : اختبارهم فى صدق غرائزهم إذا توجهوا لقتال قوم بهذا الوصف ، وقد ارتبط بهم البأس ارتباطاً وثيقاً ويكشف عن حقيقة الجهاد فيقول " تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ " .

الجملة استئناف بيانى ، لذا ترك العطف ، وذلك لكمال الاتصال حيث وقعت بمثابة جواب لسؤال تضمنته الجملة السابقة بفحواها تقديره: لماذا ندعى؟

---

(١) لسان العرب ١/ ٩٩ مادة بأس.

وفى تخير صيغة فعل المقاتلة " تُقَاتِلُونَهُمْ " الذى يشعر بشدة القتال ، وقد نزل الفريقان أرض المعركة ، وتبادلاً القتال ، وجعل المتلقى يتعايش مع هذه المعركة ، وقد برزت أمام عينيه مشاهدة محسوسة من خلال صياغة الفعل المضارع ، والتى أضفت الاستمرارية والتجدد على القتال ومواصلته دون توقف حتى إعلانهم الإسلام فقال : " أَوْ يُسْلِمُونَ " فأو للتنويع والحصر لا للشك ، أى يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا غير"(١).

فقد اختلف المفسرون بالمقصود بهم ، فقيل : هوازن وثقيف يوم حنين وقيل هم قوم بنى حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة ، وقال رافع ابن حذيج والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى " سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ " فلا نعلم من هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بنى حنيفة ، فعلمنا أنهم هم، وقيل هم : الفرس ، وقيل : هم الروم الذين خرج إليهم – ﷺ– عام تبوك(٢).

ولا يمنع البناء التركيبى أن يقصد بالدعوة كل ما أشير إليه فى السياق بدليل تنكير لفظ "قوم" فإن من يتخلف عن دعوة الجهاد فى سبيل الله دفاعاً عن دينه – عز وجل – سيدخل فى حكم من تخلف حين دعى الرسول – ﷺ– هؤلاء المخلفين من الأعراب فى الحديبية.

ويظهر الله – عز وجل – عاقبة الابتلاء والاختبار من خلال الجمع بين الترهيب والترغيب متمثلاً فى الوعد والوعيد .

ويبدأ مرغباً بتقديم الوعد بالثواب وهو من رحمة الله بعباده : " فإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا " .

جاء البناء التركيبى بأسلوب الشرط الذى يكسب الترابط والتلاؤم بين فعل الشرط وجوابه ، وتأت الأداة "إن" لتعلن عن احتمال صدور عدم الطاعة منهم ، كما تقدم لهم

---

(١) حاشية الشهاب : ٨ / ٦١.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٤.

حرية الاختيار انطلاقاً من الجمع بين الوقوف على فعل الشرط " تُطِيعُوا " والذى أعقبه بجوابه دون فاصل "يُؤْتِكُمُ اللَّهُ "

لتتجلى رحمة الله بعباده فى أروع صورها ، وأنه يقدم لهم ما ينفعهم ، ويبعدهم عما يضرهم بطريق تطبيقى عن طريق الحث بلطف ليكون أشد قبولاً .

وقد طوى ذكر من يقع عليه الطاعة والتقدير : تطيعوا الله ورسوله للمبادرة إلى معرفة الجزاء " يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا " .

إن جواب الشرط يبين جزاء الطاعة ، وأنه شىء عظيم لا يعطيه إلا من له القوة والسلطان حيث عبر بلفظ "يُـؤْتِكُمُ" دون يعطيكم وإن كان الإيتاء هو الإعطاء(١).

لأن " الإيتاء أقوى من الإعطاء فى إثبات مفعوله ، لأن الإعطاء مطاوع يقال : أعطانى فعطوت ، ولا يقال : فى الإتيان : أتانى فأتيت : وإنما يقال أتانى فأخذته والفعل الذى له مطاوع أضعف فى إثبات مفعوله من الذى لا يطاع له"(٢).

وقد أوضحت الآيات القرآنية ذلك .

قال تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

وقوله تعالى : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ (٤).

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٥).

---

(١) تهذيب اللغة ٤/ ٣٥٠ ، مقاييس اللغة ١/ ٥٠٠.
(٢) البرهان فى علوم القرآن : ٤/ ٨٥.
(٣) سورة آل عمران آية ٢٦ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٦٨ .
(٥) سورة الحجر آية ٨٧.

ومن آيات الإعطاء قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [١].

لأن الكوثر مورد فى الموقف نرتحل عنه قريباً إلى منازل العز فى الجنة فعبر فيه بالإعطاء ؛ لأنه يترك عن قرب ، وينتقل إلى ما هو أعظم منه "[٢].

إن مادة الإيتاء تظهر عظم ما سيعطيه الله – عز وجل – للطائعين وقد صرح بالمسند إليه "الله " معرفاً باسمه الجامع : لتأليف القلوب نحو طاعته – سبحانه – ويؤكد على أن العطاء الحقيقى هو ماكان مصدره الذات العلية التى تعلو بنفوس الطائعين ، وتكسبهم الطمأنينة فى تحقق العطاء لهم.

إن هذا البناء التركيبى يحرك فى ذهن المتلقى نحو نوع الإيتاء فى اشتياق لمعرفته فيبادر الله – عز وجل – بتوضيحه بقوله : " أَجْرًا حَسَنًا".

حيث تنكير لفظ " أَجْرًا " مع وصفه بقوله : "حَسَنًا " لتعظيمه مع إفادة الشمول ، لأنه يشمل الثواب فى الدنيا بتحقيق القصر مع أخذ الغنائم والثواب فى الآخرة بدخول الجنة والتنعم فى نعيمها .

ويأت جانب الترهيب متمثلاً فى وعيده حيث قال : " وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ " .

تجمع الواو العاطفة بين الجملتين حيث اتفقتا فى الخبرية فبينهما توسط بين الكمالين .

وتأت صياغة الجملة على نسق سابقتها من حيث الترابط والتلازم بين فعل الشرط وجوابه .

وثمة فارق فى البناء التركيبى للجملتين حيث وقعت جملة الاعتراض بين الطرفين المتلازمين : " كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ " ليشير إلى غرضين : –

---

(١) سورة الكوثر آية ١.
(٢) من أسرار التعبير فى القرآن صفاء الكلمة ص ٧٠ ، ٧١ .

الأول : بث الخوف والرهبة فى نفوسهم حيث أظهره الله محتملاً منهم من خلال أداة الشرط "إن"فهو يستحضر توليهم السابق فى قوله : ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الاعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ .

الثانى : يشير إلى الآية التالية ، والتى ستظهر أن التولى إذا كان لعذر مقبول فلا شىء على المتولى وهو قوله تعالى : " لَيْسَ عَلَى الاعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ ."

وجاء التصوير عن طريق التشبيه حيث شبه توليهم بالتولى السابق للتخويف من الوقوع فيه بناء على اعتقادهم الباطل ، وظنهم الفاسد .

وجاء العقاب : " يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا " بتكرار العذاب عبر صياغته بالفعل المضارع وتأكيده بالمفعول المطلق ، ليضاعف من خوفهم وبث الرهبة فى نفوسهم من هذا المصير الأليم .

وللمبالغة جاء الوصف على صيغة فعيل ، ووصف العذاب بـ "أَلِيمًا" وهو لا يكون ، أَلِيمًا ، وإنما الألم يسند حقيقة للمعذَّب ، ولكن لشدته تجاور المعذَّب إلى العذاب المتعلق به .

وتتجلى رحمة الله بعباده ، فهو خالقهم ، وهو أعلم بهم ، فلم يجعل الجهاد حكماً عاماً ينطبق على كل من تخلف بل شرع فى إظهار أصحاب الأعذار ؛ لأنه يقرر حقائق ثابتة لابد من تحقيقها ، واهتماماً بإظهار عجز هؤلاء عن تلبية داعى الجهاد لما ابتلوا به من عجز ، فلا يجمع معه الابتلاء بالجهاد(١).

---

(١) لأن الله – عز وجل– إنما شرع الجهاد لحكمة ذكرها فى سورة محمد السابقة على هذه السورة ، فالله – عز وجل – قادر على الانتصار على هؤلاء الأعداء ، ولكن جعل الجهاد ليختبر به عباده فى استجابتهم وطاعتهم لله –عز وجل – قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[سورة محمد آية : ٤] .

قال تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَى الاعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

يأت القالب الخبرى ليؤكد من خلاله على نفى الحرج بأسلوب قطعى فقال : " لَّيْسَ عَلَى الاعْمَى حَرَجٌ " بدأ بالنفى بـ "ليس"[١] مع تقديم الجار والمجرور " عَلَى الاعْمَى " على المسند إليه " حَرَجٌ " مع تنكيره لإفادة العموم والشمول . أى حرج وهو الإثم ، فقد نفى عنهم الجهاد وهم على تلك الحالة مع التأكيد على استبعاد أى إثم يلحق بهؤلاء المذكورين.

وكان التأكيد بأسلوب القصر ، وطريقة التقديم حيث قصر نفى الحرج على الأعمى بالإضافة إلى المبصر فإنه يلزمه الجهاد ، وجاء هذا التركيب فى قوله : " وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ " وكذا " وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ " حيث قصر نفى الحرج على الأعرج بالإضافة إلى السليم ، ونفى الحرج عن المريض بالإضافة إلى المعافى ، ليلقى من خلال هذا الأسلوب بلون التوجيه فالآية تحتمل وجهين :-

الأول: تعريض بذم هؤلاء الذين تخلوا عن الخروج مع الرسول – ﷺ– بزعمهم انشغالهم بالمال والأهل فهو عذر غير مقبول ، وغير حقيقى.

الثانى : مدح لهؤلاء الذين لبوا دعوة الجهاد فى سبيل الله فهم يمتثلون لأمر الله حتى الفئات المستثناه منهم.

والنفى لهم ليس المقصود منه نهيهم عن الجهاد ، ولكنهم أصحاب أعذار فإن أرادوا الجهاد بما يتناسب مع أحوالهم فلهم ذلك وأجرهم مضاعف.

وجاء حسن الترتيب فى الأعذار ليبدأ بأشد الفئات عذراً ، فهو عذر ملازم له لا ينفك عن صاحبه ومشاركته فى ساحة القتال تكاد تكون معدومة وهو العمى ، ويليه الأعرج مقدماً على المريض ، لأنه أقل من الأعمى ضرراً ، فمن الممكن مشاركة الأعرج فى ساحة القتال بأعمال تناسبه ، فليس الانتفاع منه معدوماً ومطلقاً ، أما المريض فهو عذر عارض، فهو يلحق بذوى الأعذار حالة مرضه إلى أن يبرأ فيلزمه الجهاد.

---

(١) ليس : فعل معناه نفى مضمون الجملة فى الحال : البرهان ٤/ ٣٩٦.

ويرغب الله – عز وجل – فى أمر الجهاد ، وطاعة الله ورسوله فيقول: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ .

فبدأ بالحديث عن ثواب الطاعة : لبيان فيض رحمة الله بعباده ، والعطف فى الآية من قبيل عطف العام على الخاص ، ففى الآية ذكر لعموم الطاعة من خلال أداة الشرط "من" التى تدل على العموم الدلالى، وجواب الشرط ،" يُدْخِلْهُ " ضمير الغيبة ليظهر عموم الدلالة .

أما فى قوله تعالى : " فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا "(١) فهو ذكر لخصوص طاعة المخلفين من الأعراب ، فقد ذكرهم منفردين أولاً ، ثم أعاد ذكرهم فى العموم " مَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..." ، ليؤكدوا على ضرورة الامتثال لطاعة الله ، والذى زاد من الترغيب فيها حيث خرج من عمومه فى قوله : " أَجْرًا حَسَنًا " إلى إظهار ثوابه فى الآخرة ، وهو إذا كان أمراً غيبياً فقد أكسبته الصياغة الدلالية الحيوية والمشاهدة المستقاه من صياغة الفعل المضارع "يطع .... يدخله" فإذا كانت الطاعة متجددة مستمرة فإن ثوابها مشاهد ملموس محسوس ، فهى حركة مادية مشاهدة واقعية فى المكان بدلالة الفعل "يدخله" وقد أكسبه ضمير الغائب العموم ليشمل كل من أطاع كما يشمل من أطاع من المخلفين.

ويبرز مكان الإدخال فإذا به " جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ " .جاء لفظ " جَنَّاتٍ " نكرة لإفادة التعظيم مع الجمع الذى أعطى الثراء والكثرة ، فهى جنات كثيرة ، إن هذا الغموض يجعل المتلقى يجول بخاطره ليدرك تلك الحقيقة التى لا تقف ساكنه بل تأت الحركة الصوتية المستقاه من جريان الأنهار فى صورة مشاهدة من خلال الفعل "تجرى" لتجعل من يلتزم بطاعة الله ورسوله يحيى فى هذه الطاعة فى جنات يعيش فيها فى دنياه قبل أن يخلد فيها فى آخرته ، فهو فى نعيم دائم .

---

(١) سورة الفتح آية : ١٦.

والحديث عن طاعة الله ورسوله فى السورة الكريمة مكرراً مما يلفت انتباه المتلقى إلى أهميتها ؛ فإنها المناط الحقيقى لوجود العباد هو طاعة الله – عز وجل – ولابد من اقترانها بطاعة رسوله – ﷺ – .

فقد تكرر إظهار الله مع رسوله فى قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (٢).

كما تكرر ذكر الجنات مفصلاً فى قوله تعالى : ﴿ يُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٣).

ومجملاً فى قوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ (٤).

إن ذكر "الأنهار " يربط السورة بسابقتها سورة محمد (٥).

ويأت ختام الآية ليوضح جزاء العصاة المعرضين عن طاعة الله ، مقابلةلجزاء الطائعين فقال : " وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا " جعل الجزاء عاماً لكل من يترك طاعة الله من خلال أداة الشرط "من" وفعل الشرط "يتولى" .

---

(١) سورة الفتح الآية ٩ .
(٢) سورة الفتح آية ١٣.
(٣) سورة الفتح آية ٥ .
(٤) سورة الفتح آية ١٦.
(٥) فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١٢].

وقوله تعالى : ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١٥].

فقد جعل طاعة الله هى الأساس والأصل، وأن الذى يعصى الله يعرض عنها ويتركها، وقد جاء جواب الشرط فى الآية ملاصقاً للفعل دون ذكر الجملة المعترضة " كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ " . لأنه ينتقل من الحديث عن تولى المخلفين من الأعراب، وإظهار الصراع النفسى الذى يغلب عليهم بين الاستجابة لمقاتلة القوم أولى بأس شديد ، وبين موقفهم السابق وهو التولى كما فعلوا من قبل إلى بيان حكم عام يندرج فيه هؤلاء ، ليكون فيه ردع وزجر لهم عن التولى .

إن تأكيد العذاب من خلال المفعول المطلق "يُعَذِّبْهُ عَذَابًا " لتجعل من الوقوع فى المعصية ، والحرص على التمسك بالطاعة ، كما فى إطلاق لفظ العذاب مجاز مرسل بعلاقة الحالية حيث أراد المحل وهو دخوله نار جهنم فى مقابلة دخول " جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ " فى الجملة السابقة ليوسع من دائرة العذاب ، ويكسبه الشمول فى الدنيا والآخرة . وزيادة فى إلقاء الخوف والرهبة فى النفوس من الوقوع فى هذا المصير الأليم . فالجملة الخبرية فيها زيادة فى الزجر والوعيد لمن يعصى الله وكان هذا ختاماً مناسباً إذ أبرز السياق بيان عاقبة إعراض المخلفين من الأعراب عن الدعوة إلى القتال فى سبيل الله .

***

الفصل الثالث
من بلاغة التعبير القرآني
في الحديث عن المؤمنين

المبحث الأول : **صفات المؤمنين كما وردت فى السورة**

المبحث الثانى:**نصر الله للمؤمنين** .

المبحث الثالث : **مع ختام السورة** .

المبحث الأول

صفات المؤمنين كما وردت فى السورة

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾.

[سورة الفتح الآيات ١٨ – ٢١].

المبحث الأول

صفات المؤمنين كما وردت فى السورة

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾.

بعد أن فصل الله – عز وجل – القول فى أحوال المخلفين من الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول – ﷺ– شرع ببيان أحوال المؤمنين الذين بايعوا الرسول – ﷺ– بيعة الرضوان ، ليظهر عن طريق المقابلة الفارق الشاسع بين الحالين ، وقد ذكرت المبايعة فى الآية العاشرة فى السورة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

حيث أظهرت المبايعة بذاتها ، وارتكزت على أسلوب الشرط الذى يبرز موقف المخاطبين من تلك المبايعة ، فإما الألتزام والوفاء بها ، أو النكث والتفريط ، وأظهرت عاقبة الوفاء وهو الأجر العظيم ، وتركت للمتلقى مساحة يتخيل فيها هذا الأجر ، وتأت الآية الكريمة التى بين أيدينا لتعلن عن هذا الأمر العظيم ، فإذا به

رضوان الله – عز وجل – وهو أعظم خير فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(١).

– وإنزال السكينة على المؤمنين، وأثابهم فتحاً قريباً ،وأعطاهم مغانم كثيرة.

إن الآية الكريمة تتخذ الأسلوب الخبرى المؤكد " بالقسم ، واللام وقد " لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ " فالمؤمنون فى مبايعتهم للرسول – ﷺ– يتلمسون رضا الله – عز وجل – فنزلوا منزلة السائلين له ،فجاء الخبر مؤكدا وفيه بيان لأهميته وتقريره فى النفوس ، وجاء المسند "رضى" فعلاً ماضياً ليضيف إلى أدوات التأكيد التحقق والثبوت ، ويأت المسند إليه معرفاً بالعلمية لفظ الجلالة "الله" ليؤكد على أنهم بايعوا الرسول – ﷺ– ظاهراً ، وأنهم حين أعلنوا طاعتهم له – ﷺ– ارتبطت هذه الطاعة بطاعة الله– عز وجل – فكان إظهار لفظ الجلالة تأكيداً على أن هذه المبايعة إنما هى مبايعة لله – عز وجل – كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.

ويأت تقييد الجملة بالجار والمجرور "عن المؤمنين"(٢) ليبرز وصفهم بالإيمان والذى أكسبهم رضا الله – عز وجل – " وإيذان بأن من لم يبايع ممن خرج مع النبى – ﷺ– ليس حينئذ بمؤمن وهو تعريض بالجد بن قيس إذا كان يومئذ منافقاً ثم حسن إسلامه "(٣).

وهكذا بدأت الآية الكريمة بتقديم الجزاء على فعل الطاعة : تبشيراً لهم وإظهاراً لأهميته فهو أعظم أجر فى الدنيا والآخرة

ويظهر المبايعة بقوله : " إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ " إذ ظرف متعلق بـ "رضى" ، وفى تعليق هذا الظرف بفعل الرضا يكشف عن التلازم القائم بين المبايعة ورضا الله – عز وجل – وهم على تلك الحالة ،وجاء إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر

---

(١) سورة التوبة آية : ٧٢.

(٢) جاء حرف الجر "عن" دون غيره لخصوصيته بإفادة المجاوزة وعن لما جوز الشىء إلى غيره ملاصقاً زمنه . من أسرار التعبير فى حروف القرآن ص ١١٨.

(٣) التحرير والتنوير : ٢٦ / ١٧٣.

ليحقق بلاغة فى نظم الآية الكريمة تنبئ عن إعجاز نظمه حيث عبر بالفعل المضارع "يُبَايِعُونَكَ" موضع الفعل الماضى "بايعوك".

وبلاغته : تحريك ذهن المتلقى ليجول بخاطره ويتخيل تلك المبايعة وقد اكتملت فيها كل عناصرها من حيث الأشخاص والزمان ، والمكان، إنه يكسب المعنى الحيوية لجعل هذه المبايعة وكأنها مشاهدة ماثلة أمامه

إن أطراف المبايعة حاضرون بذواتهم أمام المتلقى .

الطرف الأول : استحضار الرسول – ﷺ– عبر كاف الخطاب "يُبَايِعُونَكَ" .

الطرف الثانى : المؤمنون جاء ذكرهم باللفظ الصريح " عَنِ الْمُؤْمِنِينَ" وضميراً من لفظ المبايعة " يُبَايِعُونَكَ " والذى يحقق الترابط القوى بين الطرفين حيث جمع بينهما فى لفظ واحد، فها هم المؤمنون يرتبطون بالرسول – ﷺ – إنه رباط الصدق والإخلاص اللذان يستكنان فى القلوب، ولا يطلع عليه إلا خالق القلوب وهو الله – عز وجل – .

ويظهر عنصرى الزمان والمكان ليكتسب المعنى حركة تراجعية نحو هذا الماضى ليستحضر زمانه ومكانه " تَحْتَ الشَّجَرَةِ " وجاء تعريف الشجرة باللام للعهد، فهى الشجرة المعهودة التى عهدها أهل البيعة حيث كان النبى– ﷺ– جالساً فى ظلها ، وهى " شجرة كانت سمرة بأرض الحديبية"(١).

وتعلن الآية عن مكنون الطاعة والإيمان بقوله : " فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ " تعقيباً سريعاً على إظهارها وإعلانها فى مبايعتهم تحت الشجرة ، وذكر المسند إليه لاختصاص العلم به ، ومن دقة النظم التعبير بلفظ " عَلِمَ " دون "عرف" لأنه مناسب للذات العالية لأن العلم إدراك الشىء بحقيقته ، والعالم فى وصف الله هو الذى لا يخفى عليه شىء ، وذلك لا يصح إلا فى وصفه تعالى (٢).

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٩٠.
(٢) المفردات ص ٣٤٣ ، ٣٤٤.

أما المعرفة إدراك الشىء بتدبر وتفكر لأثره وهو أخص من العلم[١]،وفى التعبير بالقلب مجاز مرسل بعلاقة المحلية ، فقد ذكر المحل وأراد الحال فيه وهو الإيمان الذى يلزم منه الصدق والإخلاص فى المبايعة.

وبلاغته : الإشارة إلى أهمية القلب الذى يتصل اتصالاً مباشراً بالإيمان بالله – عز وجل – والإخلاص الصادق.

قال – ﷺ – " ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله "[٢].

والآية تحيلنا إلى الآية الرابعة من السورة الكريمة قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ .

ففيه تعريض بذم المخلفين ، والذين قالوا بأفواههم ما ليس فى قلوبهم وظنهم السىء فى عدم عودة الرسول – ﷺ – والمؤمنين إلى أهليهم أبداً .

ويوضح الله الجزاء الدنيوى ابتداء بقوله : " فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِهِمْ " جاء التصوير الاستعارى منسجماً مع حركتى الزمان والمكان ." إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ " ليكون تصويراً بالحركة أيضاً .

حيث شبه السكينة وهى الطمأنينة ، والهدوء والنفس ، وتمام الرضا بالشىء المادى الذى ينزل من أعلى وحذفه ورمز إليه بشىء من لوازمه "الإنزال " والتقييد بالجار والمجرور " عليهم" على سبيل الاستعارة المكنية.

---

(١) السابق ص ٣٣٧ .
ويقال الله يعلم كذا ، ولا يقال يعرف كذا ، لما كانت المعرفة تستعمل فى العلم القاصر المتوصل به بتفكر " وهكذا نرى لغة القرآن فى كل شأن تتناوله من شئون القول تستعمل أشرف المواد وأمسها رحماً بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد وأقبلها للامتزاج ، وتضع مثقال ذرة فى موضعها الذى هو أحق بها وهى أحق به بحيث لا يجد المعنى فى لفظة إلا مرآته الناصعة وصورته الكاملة ".
ينظر النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز ص ٩٧ ، ط ٢ سنة ١٩٧٠م .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه – كتاب الإيمان ٥٦/١ حديث ٥٢ .

وبلاغتها : ليرسم صورة السكينة وهى تحيط بالمؤمنين وتشملهم شمولاً كلياً حتى وصلت واستكنت فى مكنون الإيمان وهو القلب ، والذى دفعهم إلى إعلان المبايعة للرسول – ﷺ–.

والآية ترمى بذلك إلى مدح المؤمنين، وذم المخلفين، والذين حرموا أنفسهم من نعمة السكينة والأمن النفسى، وهو ما يسميه البلاغيون الاستتباع(١).

وتختتم الآية بالحديث عن نعمة أخرى " وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ". جاءت الواو العاطفة لتربط هذا الفتح بدلالة السكينة المنزلة ، وعلم ما فى القلوب، ليؤكد على تحقيقه وثبوته ، وتظهر شوق المؤمنين لتحديده ومعرفته ، فكان التنكير " فَتْحًا " لإفادة التعظيم ، لأنه من الله – عز وجل – ووصف بقوله " قَرِيبًا فهو فتح محدد الزمان ، ظاهر لأنه من الله – عز وجل – ومع هذا التحديد فيه نوع من الخفاء يجعل المتلقى يقف أمامه متعمقاً فى المعانى ومتدبراً لها ، ليقف على مدلوله فأى فتح للبلدان سيكون ؟

فيأت قوله : ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

ليضفى على الآية التوضيح والبيان ، وترتبط الآية بسابقتها بالواو العاطفة لتظهر تعدد نعم الله على المؤمنين المبايعين .

وبينهما توسط بين الكمالين تأكيداً على التلاحم العضوى بين الآيتين والصلة الوثيقة التى تربط بينهما .

وبدأ بذكر الغنائم فقال : " وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا " حيث دل جمع لفظ " مَغَانِمَ " على الكثرة ، وزاد على ذلك فوصفها تصريحاً بالكثرة ، وكأن كثرتها تفوق ما ينتظرونه ، وهى مغانم خيبر .

---

(١) الاستتباع . المدح بشىء على وجه يستتبع المدح بشىء آخر .
حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ٤/ ٣٩٧ .

وفى تقديم لفظ " مَغَانِمَ " على الفعل " يَأْخُذُونَهَا " يفيد قصر الأخذ على الغنائم كما يفيد التأكيد على تحقيقها وثبوتها ، ومن ثم تحقق النصر ، لأن المغانم مجاز مرسل باعتبار ما سيكون.

ويرسم حركة تصويرية مشاهدة مستمدة من الفعل المضارع "يَأْخُذُونَهَا " ليبعث إلى المؤمنين البشارة بأن هذه الغنائم من نصيبهم ، وانه لن يهلك أحد ممن حضر البيعة قبل رؤية هذا الفتح ، فهى لهم خاصة ، وبهذا يتأكد قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(١).

وتختتم الآية بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾تذييل مقرر لمضمون قوله : ﴿ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾.

وفيه تشابه أطراف ظاهر ، لأن تيسير الفتح مع تحقق النصر بإبراز مظاهره ، وهو أخذ الغنائم الكثيرة لا يقدر عليه إلا العزيز الغالب وهو الله الحكيم الذى يضع كل شىء بحكمة ويرتب المسببات على أسبابها ، ولا يوصف بذلك إلا الله – عز وجل – فكان ختاماً قوياً بنى على صيغتى المبالغة " عَزِيزًا حَكِيمًا ".

وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.

تبدأ الآية بالتأكيد على أخذ المؤمنين الغنائم الكثيرة من خلال تكرار قوله : " وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا " فهى تكرار لقوله " وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا " وكلاهما بالأسلوب الخبرى الذى يفيد تأكيد وتقرير المعنى المراد وزيادة التأكيد جاء أسلوب الالتفات ليجعل من اختلاف الصياغة فى الجملتين محققاً ذلك.

---

(١) سورة الفتح آية : ١٥ .

وقد التفت من الغيبة فى قوله " ومَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا "فقد عبر عن المؤمنين بصيغة الغائب ، أما قوله " وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ". فقد التفت إلى الخطاب ، تعظيماً للمؤمنين ، وإشعاراً بقربهم من الله – عز وجل – لذا استحقوا شرف الخطاب بالوعد منه – تعالى – .

وفيه : جذب لانتباه المتلقى للوقوف على مكانة هؤلاء المؤمنين الذين استحقوا هذا التشريف حتى يسلك مسلكهم فى طاعة الله – عز وجل – فيكون لهم هذا الوعد .

فقد قيل المقصود بالغنائم الكثيرة فى الآية "ما يفئ على المؤمنين إلى يوم القيامة "(١).

فهى وعد للمؤمنين بتحقيق النصر لهم ، وأخذ الغنائم من الفتوحات بشرط أن يكون جهادهم طاعة لله ورسوله متمثلين فى ذلك موقف المؤمنين فى الحديبية حين بايعوا الرسول – ﷺ– تحت الشجرة .

وتأت جملة " فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ " لاستحضار موقفهم ، وتبدأ بالعطف بالفاء التى تدل بذاتها على الترتيب والتعقيب لتجعل لفعل التعجيل زمناً محدداً ،ففيه تخصيص تعجيل الغنائم الكثيرة على المخاطبين ، وهم المؤمنين الذين حضروا الحديبية فلهم غنائم فتح خيبر .

وفى تعريف الغنائم باسم الإشارة " هذه" للإشعار بقربها وتميزها واستحضارها بعينها فى أذهان المخاطبين ، وفيه تأكيد على تحقق منع المخلفين من الأعراب من المشاركة فيها كما قال تعالى : ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢).

---

(١) الكشاف : ٦/٦.
(٢) سورة الفتح آية : ١٥.

وتظهر الآية نعمة الله على المؤمنين " وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ ".الواو العاطفة تشير إلى تعدد نعم الله – عز وجل – على الرسول – ﷺ– وعلى المؤمنين ، فتلك النعم ليس لها بعداً زمانياً محدداً.

فمن رحمة الله بعباده المؤمنين أن منع أذى أعدائهم عنهم ، وفى البناء التركيبى ما يحقق هذه الرحمة حيث أسند الكف إلى الله – عز وجل – وطوى ذكره للعلم به وكون الفعل لا يختص إلا به – سبحانه – . والتعبير بالأيدى لتحقيق الأذى والضرر ، وفى جمعها دليل على كثرة الأعداء الذين يتربصون بالمسلمين ، وعبر عنهم بكلمة "الناس" لتشملهم جميعاً ، فقد "قيل كف أيدى أهل خيبر ، وبنو أسد وغطفان كانوا حلفاء لأهل خيبر فلما سمعوا بتوجهه – ﷺ– لخيبر ساروا لمعاونة اليهود فسمعوا ضجة ، وظنوا أن النبى – ﷺ– والمؤمنين أوقعوا بهم فرجعوا وخلو بينه وبين خيبر "(١).

وقيل كف أهل مكة بالصلح(٢).

وقيل كف اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول – ﷺ– إلى الحديبية والتقييد بالجار والمجرور "عنكم" يؤكد تلك الرحمة ، فهم مصانون من الله – عزوجل – أن يلحق بهم أى أذى.

وقوله : " وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ" الواو العاطفة على محذوف هو علة الكف أو عجل أو لجميع ما قبله من قوله وعدكم والتقدير لنفعكم بما ذكر ولتكون "(٣).

واللام للتعليل ، والفعل المضارع "تكون" يعطى دلالة التجدد والاستمرار ليشعر بأن هذه الآية باقية للمؤمنين فى كل وقت ، وليست محددة بوقت نزولها ، فهى أمر دائم مستمر للمؤمنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو ما يؤكد إعجاز القرآن الكريم فى استمراريته ، وأنه متجدد وصالح لكل عصر ، وكل حين.

---

(١) حاشية الشهاب : ٨/ ٦٣ .
(٢) الكشاف ٦ / ٦.
(٣) حاشية الشهاب : ٨ / ٦٣ .

وحذف المسند إليه اسم " تكون" لتذهب نفس المتلقى كل مذهب لتقديره ، ويعمل على تحرى الصلات بين المعانى لفهم المحذوف والتقدير: لتكون هذه الكفة أو الغنيمة.

وتنكير "آيَةً" للتعظيم، كما يعمل على استيفاء الخفاء الذى لا يعرف إلا بالتفكر والتدبر فى حقيقة الموقف .

وصرح بلفظ "المؤمنين" تعبيراً على خلاف مقتضى الظاهر حيث صرح بلفظ المؤمنين: لإبراز الصفة التى استحقوا بها هذه النعم من الله –عز وجل – كما فيه تشريف بذكرهم وهو ما يشير إلى ذم المنافقين والكافرين عبر عنهم بلفظ " النَّاسِ " ولم يذكرهم صراحة .

والبناء التركيبى يشير إلى أن الآية للمؤمنين لتكون لهم "إمارة يعرفون بها أنهم من الله بمكان ، أو صدق الرسول– ﷺ– فى وعدهم فتح خيبر فى حين رجوعه من الحديبية ، أو وعد المغانم ، أو عنواناً لفتح مكة"(١).

وتختتم الآية بإظهار نعمة أخرى ينعم الله بها على المؤمنين عبر الواو العاطفة "وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا " فهى هداية متجددة مستمرة يستحضرها المتلقى وهو يقرأ الآية الكريمة ويستحضر تلك النعم التى أنعم الله بها على المؤمنين فى ذلك الوقت فيأخذ منها العبرة والعظة ، ويحرص على امتثال مسلك المؤمنين حتى يصل إلى سبيل الهداية والرشاد.

وفى تنكير "صراطاً" فلم يحدد حقيقته، ليترك للأذهان الوقوف على تلك الحقيقة وتتبع أيات السورة ليجد أن ذات النعمة أنعم الله بها على رسوله فى بداية السورة قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾(٢).

---

(١) حاشية الشهاب : ٨ / ٦٣ .
(٢) سورة الفتح آية ٢.

ففى الآيتين استحضار لشخص الرسول – ﷺ– مخاطباً ، واستحضار للمؤمنين مخاطبين ، وإسناد كل الأفعال لله – عز وجل – فهو المخاطب لهم ففيه تشريف وتكريم لهم ، وإظهار لعطاء الله – عز وجل – لهم حيث التزموا بالطاعة فكان لهم الهداية إلى الطريق القويم فى الدنيا ليصل بهم إلى جنات النعيم فى الآخرة ، وهذا الجزاء الأخروى ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (١).

والآية إشارة إلى أن ما أعطاهم الله من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب، بل الجزاء أمامهم ، وإنما هى شىء عاجل عجلة لهم لينتفعوا به، ولتكون آية لمن بعدهم من المؤمنين ، وتدل على صدق وعد الله فى وصول ما وعدهم به كما وصل إليكم .

وتظهر الأيات نعمة أخرى أعدها الله للمؤمنين بقوله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ .

ربطت الواو العاطفة بين الجملتين لتشير إلى حقيقة مؤداها : أن الله – عز وجل – أنعم على المؤمنين بالغنائم الكثيرة التى وعدهم بها ، وكانت سمتها التعجيل ، وهناك مغانم أخرى لم يحدد وقتها موجودة لهم مؤجلة ، ففيها خفاء ، ولذا كان التصوير الكنائى معبراً عنها بقوله " وأُخْرَى " ليؤكد على ما فيها من خفاء يجعل المتلقى شغوفاً للوقوف على حقيقتها بمتابعة البناء التركيبى للآية ، ليتضح له شىء منها فيقف على وصفها " لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا " ليؤكد على أن ما لم يقع فى قدرة المؤمنين فيه نوع خفاء لا يحيط به إلا الله – عز وجل – .

فهناك من الفتوحات التى لا يعلمها إلا الله ستكون فى المستقبل يذللها للمؤمنين إن هم أخلصوا الطاعة لله ورسوله ، وهكذا يدفع البناء التركيبى فى الآية المتلقى للوقوف على ماهية هذه الفتوحات ، ليستدعى كل الفتوحات من أول فتح

(١) سورة الفتح آية ١٧ .

مكة ، وما أعقبها من فتوحات عظيمة لم تكن فى قدرة المؤمنين ، ولكن الله – عز وجل " قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا " .

يأت تركيب الجملة مصدراً بـ "قد" المؤكدة لبث الطمأنينة فى نفوس المؤمنين ، وتأكيد على نصر الله لهم ، والذى جاء التصوير الاستعارى محققاً لذلك حيث قال " أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا " فشبه المغانم التى أعدها لهم بالشىء المادى الذى أحيط به من كل جوانبه ، وحذفه ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو كلمة " أَحَاطَ " على سبيل الاستعارة المكنية فهذه المغانم محفوظه ومصونة لهم دون غيرهم جزاء لهم على طاعتهم لله ورسوله.

وقد أظهرت الآية إحاطته – عز وجل – بهذه المغانم فكانت حديث عن القدرة بمعناها الخاص لتنتقل إلى الحديث عنها بمفهوم عام ، ليكون ختام الآية معبراً عن ذلك " وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا " تذييل مقرر لمضمون الكلام السابق ، وتبدأ الجملة بالواو العاطفة لتؤكد على ملمحين هما العلم والقدرة اللذان يشيران إلى الذات العلية، والتى صرح فيها بلفظ الجلالة الجامع لكل صفات الجلال والكمال "الله" مسند إليه ، وجاء المسند " قَدِيرًا " لتختتم به الجملة ، فكان للتقديم والتأخير فى البناء التركيبى بلاغته مع تنكير لفظ "شىء" ولفظ العموم " كُلِّ" المسبوق بأداة الاستعلاء " على" ليبرز مظاهر سلطان الله وهيمنته على الكون كله ، هيمنة استعلاء وقدرة وهكذا يرتبط آخر الآية بأولها لتظهر التفاوت التام بين قدرة البشر ، وخالق البشر ، فقدرتهم يلحقها الضعف ، فقال : " لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ".

أما قدرته – عز وجل – فتشمل كل شىء فى الوجود تقع فى مخيلة الخلق " وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا " وكان طباق السلب مؤكداً على ذلك بين " لَمْ تَقْدِرُوا و قَدِيرًا " كما زينه بالإرصاد [١] فإن كلمة " لم تقدروا" فى بداية الآية.

---

(١) وهذا اللون من البديع من محمود الصفة فإن خير الكلام ما دل بعضه على بعض . المثل السائر ٣٢٩/٢.

دل على أن مادة العجز من مادة القدرة ، فأول الكلام يخبر بآخره وصدره يشهد بعجزه ، فالله عز وجل – يبعث الطمأنينة فى نفوس المؤمنين، فإن كان قد سلبهم القدرة فقد منحها إياهم فى ختام الآية ، لأن ربهم الذى أطاعوه خاطبهم بإعلان قدرته على تحقيق مالا يقع تحت مقدورهم من فتوحات ونصر على الأعداء، وقد جاءت الآية التالية دليلاً على ذلك .

***

المبحث الثانى

نصر الله للمؤمنين

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا * وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾.

[سورة الفتح الآيات ٢٢ – ٢٧].

المبحث الثانى

نصر الله للمؤمنين

قال تعالى : ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾(١).

ترتبط الآية بسابقتها بالواو العاطفة للاتحاد فى الخبرية مع كونها مسوقة مساق الخطاب ، مع الاشتراك فى السياق ، فكان التوسط بين الكمالين مصوغاً للعطف بينهما .

وبذلك يستمر خطاب الله للمؤمنين تشريفاً وتكريماً لهم.

وفى هذه الآية تصريح بالقتال بين المؤمنين والكافرين يبدأ بأداة الشرط " لو" لتجعل القتال أمرا محتملاً بين المؤمنين والذين كفروا .

ويظهر الله – عز وجل – المفارقة والتباين بين الفريقين ، فيأتى المؤمنون مخاطبين ، أما الطرف الأخر"الَّذِينَ كَفَرُوا" جاء التعريف بالموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر ، فالمراد بالذين كفروا ما أريد بالناس فى قوله "وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ "فكان مقتضى الظاهر أن يأتى بضمير الناس فيقال " و" لو قاتلوكم"فجاء هذا العدول :

للتأكيد على المفارقة بين المؤمنين والكافرين ، وبيان منزلة كل منهما.

– فالمؤمنون مقدمون عليهم مخاطبون من الله – عز وجل – خطاب التشريف والتكريم ، ولهم النصر من الله – تعالى – .

– أما الكافرون فلم يعرفوا إلا بما فى حيز الصلة ، وهو الكفر الذى سيكون السبب فى توليتهم الأدبار.

ويأت جواب الشرط " لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ " تصوير كنائى فهو كناية عن صفة الهزيمة التى تلحق بهم ، ولكن لإظهار ضعفهم وتخاذلهم أمام المؤمنين صوروا بهذا التصوير الذى يؤكد بالدليل القاطع ضعفهم ، كما يظهر قوة المؤمنين فإنهم يتبعونهم ، وهم يفرون أمامهم ، وقد جعلوا ظهورهم فى مواجهة المؤمنين.

---

(١) سورة الفتح الآية : ٢٢ .

وفى الجملة إيجاز بحذف المفعول الأول والتقدير "لولوكم الأدبار" وذلك لدلالة ضمير " قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا " عليه .

وتعريف الأدبار باللام للعهد أى أدبارهم .

إن التصوير الكنائى مع البناء التركيبى يحقق صورة تخيلية يعيشها المتلقى.

فقد تحرك بذهنه ينتقل إلى أرض المعركة والقتال ، ليشاهد طرفاها : المؤمنون فى قوة يهجمون ، ولهم الغلبة والنصر ، والكافرون فى ضعفهم وخذيهم يولون الأدبار منهزمين .

إنها صورة تنفر من الكفر والكافرين الذين لحقهم التخاذل والاضطراب لفترة ، لينتهوا بعدها إلى البحث عن الولى أو النصير فقال تعالى: " ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ".

أداة العطف " ثم" تشعر بمدى الاضطراب والتخبط الذى لحقهم وقد أخذوا وقتا يبحثون فيه عن من ينقذهم من هزه الهزيمة فلم يجدوا تحقيقاً لقوله تعالى فى سورة الفتح. " وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ ".

وجاء نفى الولى والنصير بصيغة المضارع " لا يَجِدُونَ " لتجعل نفيها نفياً مطلقاً مستديما ، ويأتى العموم والشمول من تنكير لفظى "وليا" ولا نصيرا" ليؤكد على افتقادهم النصر تماماً ، وهو أشد عليهم من الهزيمة ؛ إنهم حين ينهزمون قد يكون لهم أمل فى إيجاد من يستنصرونه ، فإذا بهم لا يجدوه فينقطع أملهم فى النصر ، وتحقق هزيمتهم على نحو فيه ذل وانكسار.

وفى عطف النصير على الولى من عطف الخاص على العام .

فالولى : هو التابع المحب .. والصاحب والقريب ... والجار والحليف والشريك[١].

أما النصير : فهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ، لأن كل واحد من المتناصرين ناصر ومنصور ، وقد نصره ينصره نصراً إذا أعانه على عدوه[٢].

---

(١) لسان العرب : ٦/ ٤٩٢٣ مادة ولى .
(٢) لسان العرب : ٦ / ٤٤٤٠ مادة نصر .

أما الكافرون لا يجدون من يخفف عنهم من هزيمتهم ، أو ينصرهم ويعاونهم فى قتالهم مع المؤمنين ، فالولى قد يكون غير قادر على الوقوف مع وليه ونجدته .

أما النصير ، فهو الذى ينصر من يستنصره ويعينه على عدوه .

وبهذا تتأكد المفارقة التامة بين المؤمنين والكافرين الذين يثبت ويتحقق افتقادهم للولى والنصير .

أما المؤمنون فقد قال الله فيهم : ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ (١). فى سورة الفتح وأثبتت لهم الولاية فى سورة محمد قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (٢).

وتأت الآية التالية لتؤكد مفهوم الآية الكريمة فقال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا ﴾.

إن بدء الآية يجذب انتباه المتلقى ، ويدعوه إلى التفكر والتدبر ؛ لأن التركيب الإضافى " سُنَّةَ اللَّهِ " يشعر بالفعل المحذوف : سنة الله غلبة أنبيائه سنة " فكان المفعول المطلق بدلاً من فعله المحذوف لتأكيد الفعل ، فالله جعل طريقته نصر المؤمنين على الكافرين إذا كانت نية المؤمنين نصر دين الله – عز وجل – قال تعالى : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ (٣).

كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤).

وقد أضفت الإضافة لله – عز وجل – تأكيد وإثبات تلك السنة ، والتى ازدادت تأكيداً بوصفها "الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ" فكان البدء بالموصولية والتأكيد بـ قد التى تفيد التحقيق ، والفعل الماضى "خلت" والتقييد بالظرف " مِن قَبْلُ "كل ذلك يكسب السنة

(١) سورة الفتح آية ٢٠.
(٢) سورة محمد آية ١١ .
(٣) سورة الحج آية ٤٠.
(٤) سورة المجادلة آية ٢١.

ثباتاً وتأكيداً ملازما فى الماضى ، وأكد على ثباتها مستقبلاً فقال " وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا " فكان خطاباً موجهاً للرسول – ﷺ– ليلفت الانتباه إلى تلك الحقيقة فلا تبديل فى سنة الله مستقبلاً، فقد استوفى جميع الأزمنة الماضى فى قوله " سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ" والمضارع فى خطابه بالفعل المضارع "تجد" الذى يشير إلى التجدد والاستمرار ، وجاء المستقبل من خلال استخدامه لأداة النفى " لَن " التى تفيد النفى مستقبلاً ، وكان فى خطابه للرسول – ﷺ– تأكيد على نصرة الله – عز وجل – له .

وكان للتقديم والتأخير بلاغته ، فقد تقدم الجار والمجرور " لِسُنَّةِ اللَّهِ " على المفعول "تَبْدِيلا "اهتماماً بإبراز السنة فى ذهن المتلقى ، وتشويقاً إلى معرفة دلالة التركيب ، فإذا كان نفى التبديل لأخر ما تنعقد عليه الألسنة فقد انتفى نفياً مطلقاً لأى تبديل أو تغيير يمكن أن يلحق لسنة الله فى كونه .

وهكذا يبشر الله عباده المؤمنين بنصره وتأيده لهم ، وأن" هذه سنة الله وعادته فى خلقه ما تقابل الكفر والإيمان فى موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر ، فرفع الحق ووضع الباطل"(١).

لقد جعل الله– عز وجل – نصر المؤمنين سنة كونية ثابتة لا تتبدل، فهو يلقى السكينة فى قلوبهم ، ويثبتهم أمام عدوهم ، ويؤكد لهم أن صلح الحديبية لم يكن لضعفهم ، وقوة عددهم ، وإنما لحكمة إلاهية بدليل أنه إذا التقى فريق الإيمان وفريق الكفر، فإن السنة الكونية التى لا تبديل ولا تغيير فيها هى أن يكون النصر للمؤمنين وقد تحقق ذلك فى الماضى، وسيتحقق ذلك فى المستقبل، فليطمأن المؤمنون إلى عطاء الله لهم.

ويذكرهم الله – عز وجل – بحادثة وقعت يعرفها المخاطبون من المؤمنين ليبرهن لهم أن كل شىء يقع إنما هو تدبير من الله – عز وجل – فقال : ﴿وَهُوَ

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٩٢.

الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾.

تبدأ الآية بداية لافتة حيث العطف بالواو على الآية السابقة ، والتى صرح فيها باسم الجلالة بلفظه ، بل جاء مكرراً: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا ﴾ .وذلك لتربية المهابة فى النفوس.

أما هذه الآية فقد بدأت بتعريف المسند إليه بضمير الغائب " هو" لتجعل المتلقى يرتبط بالآية السابقة للوقوف على ما يرجع إليه هذا الضمير، فإذا به يرتبط بالذات العلية القادر على كل شىء ومن قدرته تحقق سنته فى خلقه فلا تبديل فيها.

وجاء تعريف المسند بالموصولية "الذى" لتقرير الخبر وتحقيقه .

وفيه تأكيد على امتنان الله على عباده المؤمنين حيث كف أيدى الكافرين عنهم ، وكف أيديهم عن الكافرين، "وذلك أن ثمانين من المشركين طافوا بعسكر المؤمنين ليصيبوا منهم، فأخذوا وأتى بهم إلى رسول الله- ﷺ- فعفا عنهم وخلى سبيلهم فكان سبب الصلح"(١).

والتعبير بالفعل الماضى "كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ" يفيد تحقيق ثبوت الفعل .

وفى لفظ " أَيْدِيَهُمْ " مجاز مرسل بعلاقة السببية ؛ لأن المراد كف الأذى، واليد سبب فيه .

وفيه إشارة إلى لطف الله بالمؤمنين ومحبته لهم ،وقد عبر فى جانبهم بالخطاب فقال : " أَيْدِيَكُمْ عَنْهُم " فكان التباين فى استخدام الضمائر حيث عبر فى جانب الكافرين بضمير الغيبة فقال "كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ " لتكون هناك الموازنة بين مكانة الكفار حيث الإبعاد والمهانة ، ومكانة المؤمنين حيث التكريم والتشريف.

---

(١) روح المعانى : ٢٦ / ١١١.

وفى قوله " بِبَطْنِ مَكَّةَ " حقيقة البطن جوف الإنسان والحيوان واستعماله فى المنخفض من الشىء أو المتوسط مجاز [١] ومنه قول كعب بن زهير :

فى فتية من قريش قال قائلهم ∴ ببطن مكة لما أسلموا زولوا

ففى الجملة تصوير عن طريق الاستعارة التصريحية حيث شبه مكان الحديبية بالبطن ،أ أو استعير البطن لاسم المكان ليشير إلى قرب المكان من مكة المكرمة ، وأنه جزء منها ، ومع ذلك استجاب المؤمنون لأمر الله ورسوله – ﷺ– ولم يدخلوا مكة ، وكان صلح الحديبية والعودة إلى المدينة فهو بذلك يستكمل عناصر الحدث ، بأن ذكر مكانه ، ليظل راسخاً فى أذهان المؤمنين ، وهو يؤكد على التزام المؤمنين بالطاعة رغم قربهم الشديد من مكان العمرة ، فهو جزء من مكة ، كما يظهر تعنت الكافرين، وعدم سماحهم للمؤمنين بدخول مكة.

ويستكمل عناصر الحدث ليظهر الزمان " مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ " وجاء مؤخراً تمهيداً للأذهان للوقوف عليه ، وتدبره ، وجاء المصدر مؤولا " أَنْ أَظْفَرَكُمْ " ليكسب المعنى الحيوية.

والتعبير بالظفر مناسب لمعنى الآية، فالظفر. الفوز بالمطلوب ظفرّه الله غلبه أى: غلّبه عليه، وكذلك إذا سئل أيهما أظفر، فأخبر عن واحد غلب الآخر"[٢].

وعلى ذلك فالظفر الفوز بالمطلوب ، والغلبة على الأعداء ، وإن لم يكن قتال.

وجاء الجار والمجرور "عليهم" إظهاراً لتحقيق الغلبة على الكافرين

فالله – عز وجل – لم يكف أيدى المؤمنين عن الكافرين لضعف فى المؤمنين، ولكن قوتهم ظاهرة وواضحة ،فقد كان للمؤمنين الغلبة والاستعلاء عليهم، فهم متمكنون منهم.

وكان ختام الآية متسقاً مع مضمونها " وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا " بالتعبير بالفعل الماضى كان لإفادة التحقق والثبوت ، وإظهار لفظ الجلالة "الله" مسند إليه

(١) أساس البلاغة ص ١٣ بتصرف .
(٢) أساس البلاغة ص ٤٠٢ ، لسان العرب ٤/ ٢٧٥٠ مادة ظفر.

إشفاقاً بالمؤمنين وحتى يبث الطمأنينة فى نفوسهم بأن الله ناصرهم ومظهر أمرهم ، والتعبير بالفعل المصارع" تَعْمَلُونَ " مخاطباً به المؤمنين لاستحضار أعمالهم ، وكأنها مشاهدة أمامهم .

وآخر المسند " بَصِيرًا "ليكون ختاماً قوياً للآية الكريمة بصير بأحوال المؤمنين وأعمالهم ،يعلم ما فيه صالحهم ، لذا منعهم عن الكافرين رحمة بهم.

وجاء ختام الآية الحادية عشرة : ﴿ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾. وختام الآية : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

وبالتأمل نجد أن "خَبِيرًا " اختصت بالسياق الدلالى الباطنى لأنها أخبرت عما أضمره المنافقون فى باطنهم "[١].

فهى معرفة ببواطن الأمور ، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢].

أى عالم بأخبار أعمالكم وبواطن أموركم .أما " بَصِيرًا " فقد اختصت بالسياق الدلالى الظاهرى ، لأنها تحدثت عن الحرب التى لم تقع بأمر الله بين المسلمين والمشركين

إن حياة الرسول – ﷺ – وصحابته فى المدينة لم تكن سهلة هادئة ولكنها حياة كفاح وتضحية ، وتجربة عميقة يستفيد منها المؤمنون فى شتى العصور والأزمان ، إن أعظم أسلحة امتلكها المؤمنون فى ذاك الوقت هى حقيقة الأيمان العميق بالله تعالى . لذا ظفروا بأعدائهم ، وكان نصر الله حليفهم قال تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[٣].

---

(١) درة التنزيل : ص ٣٠٢.
(٢) سورة آل عمران آية ١٥٣.
(٣) سورة غافر آية ٥١ .

ويتحدث الله – عن الكافرين قال تعالى : ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

يظهر الله قبح فعل الكفار مع المؤمنين حينما أرادوا العمرة فقد صدوهم عن المسجد الحرام ، ومنعوا الهدى من الوصول إلى الحرم ، ولم يكن ذلك من سماتهم ، فكانوا يزعمون أنهم أهل حرم الله ، ومن عاداتهم قبول الزائرين للكعبة من جميع الأديان ، ولكن لكرههم الشديد للرسول – ﷺ– وأصحابه منعوهم من العمرة.

وجاءت صياغة الآية بالأسلوب الخبرى ، ليقرر حقائق ثابتة تشير إلى مذمة هؤلاء الكافرين على فعلهم ، وتسجيلاً عليهم بسوء صنيعهم .

وتبدأ الآية بتعريف المسند إليه "هم" ضمير الغائبين ويرجع إلى الكافرين ، والذى جاء ذكرهم فى الآية السابقة " هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم "

ويلاغته : الإشارة إلى وجه بناء الخبر ، فيشد السامعين والمتلقين للوقوف على حقيقة الخبر .

وتعريف المسند بالموصولية " الَّذِينَ كَفَرُوا"حيث وصفهم بالكفر ، وصار هذا الوصف بمنزلة الجنس فصار الموصول فى قوة المعرف بلام الجنس.

ويكون تعريف الطرفين لإرادة التخصيص حيث قصر صفة الكفر عليهم مبالغة فى ذمهم ، وكأنهم هم الكافرون ، لا غيرهم ،فهم متفردون بهذا الوصف وذلك لسوء صنيعهم.

ويعدد الله أوصاف الذين كفروا فكان العطف " وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ " عطفت على الصلة " كَفَرُوا " .

ومعنى الصد : المنع والصرف[١] ولكن إيثار لفظ الصد دون المنع والصرف ليوحى بالحالة النفسية التى كان عليها المؤمنون ، وهم متجهون إلى المسجد

(١) لسان العرب ٤/ ٢٤٩٠ .

الحرام لآداء العمرة ، فإذا ما يمنعهم ويصرفهم عن وجهتهم التى أحبوها، وساقوا الهدى معهم ليؤكدوا على أن مجيئهم لآداء العمرة ، وليس القصد منه العدوان والقتال.

وجاء خطاب المؤمنون "صَدُّوكُمْ" تشريفاً وتكريماً لهم.

ولم يقف المنع على المؤمنين فقط ، وإنما وصل إلى الهدى ، فكان العطف : " وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ " .

والمقصود بالهدى: ما يهدى من الأنعام للكعبة ، وأوضح حاله بقوله: " مَعْكُوفًا " أى : محبوساً.

فقد كانت الأنعام متشوقة إلى الوصول إلى بيت الله الحرام ،ولكنهم منعوها، وفيه تصوير للأنعام بمن يعقل وحذفه ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو الحبس عن الوصول إلى المراد على سبيل الاستعارة المكنية.

وفى التعبير بالمصدر المؤول " أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ " ليكسب المعنى طاقة تصويرية تجعل المتلقى يعيش تلك الأوقات التى عاشها الرسول – ﷺ– وأصحابه ، ويرسم فى مخيلته تلك الصورة عبر الفعل المضارع الذى يعطى للمعنى الحيوية ، ويجعل المتلقى يتعايش مع الحدث ، ويتخيل المؤمنين ومعهم هديهم حُبس فى الحديبية ، لقد قابل الكفار شوق المؤمنين للبيت الحرام وآداء العمرة بكراهية شديدة معلنة بصدهم عن البيت الحرام .

والآية تصوير كنائى عن آداء العمرة لتؤكد بالدليل على المنع .

فقد جاء الرسول – ﷺ– وصحابته مصطحبين الهدى معهم ليكون دليلاً على آداء النسك ، فإذا به يصير دليلاً على تجبر وتعنت الكفار الذين استحقوا بسبب هذا الفعل أن يسجل عليهم وصفهم بالكفر وحدهم.

وجملة " أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ " بدل اشتمال من الهدى أى: وصدوا بلوغ الهدى محله، لذا تعين الفصل بينهما لكمال الاتصال.

وفى ذكر المكان الذى يحل فيه نحر الهدى بقوله "مَحِلَّهُ " كناية عن مكة المكرمة ، فإن المعتمر لابد له من النحر فى مكة ؛ لذلك لما أحصروا أمرهم الرسول – ﷺ– أن ينحروا هديهم فى أماكنهم فى الحديبية ،ولم يعودوا بها إلى المدينة .

وفائدة ذكر المكان حيث صرح به فى قوله :"وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ " ،وأعاد ذكره تلويحاً عند ذكر الهدى فى قوله : " مَحِلَّهُ " ،ليشير إلى تحقق المنع ، وتصوير للحالة الوجدانية التى سيطرت على المؤمنين فى ذلك الوقت ، ومدى تعلقهم بالبيت الحرام .

ويظهر الله حكمته من صلح الحديبية ومن قوله: " وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم " فقال: ﴿ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

جاءت صياغة الجملة مصدرة بالجملة الشرطية التى تبدأ بـ " لَوْلا" والتى تفيد امتناع لوجود حيث امتنع الجواب لوجود الشرط.

أى: امتنع قتالنا للكافرين لأجل وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات. والمعنى على ذلك : لولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين بين أظهر الكفار حال كونكم جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم" (١).

وفى تنكير المسند إليه " رِجَالٌ " للتأكيد على عدم علم – ﷺ– وصحابته بذواتهم .

ووصفهم بالإيمان :ليبرز المانع من حصول الجواب وهو القتال فالإيمان دافع قوى لعدم القتال .

وحذف المسند الخبر والتقدير: "رجال مؤمنون موجودون بمكة، للعلم به ، فالحذف فى القرآن إنما آداء للمعانى فى أعلى قمة من النظم فحين حذف المسند فى الآية فلأن الدلائل عليه جعلت فى طيه الإيجاز وجعلت المتلقى ينصب اهتمامه على صفة الإيمان ، والتى عمل نظم السورة على إبرازها.

(١) حاشية الصاوى على الجلالين : ٤/ ٩٨ .

وعطف " وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ " التصريح بذكرهن إطناب وهو من عطف الخاص على العام فهن يدخلن مع رجال مؤمنون تغليباً، ولكن فى إفرادهن بالذكر بلاغة، وهى التسجيل لهن بهذا الوصف ، ليبين أن امتناع قتال الكفار لأجل وجودهن ففيه رحمة الله بهن .

وجاء الوصف " لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ " ليشمل الرجال والنساء لأنهم آمنوا بعد خروج النبى – ﷺ– مهاجراً.

وأكدت دلالة الفعل وهو نفى العلم بأشخاصهم ما فى تنكير" رجال ونساء من عدم الوقوف عليهم فقيل إنهم كانوا " تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين "[١].

وجملة : "أَن تَطَؤُوهُمْ"التأويل بالمصدر ليجعل الفعل متخيلاً ومشاهداً ويكمل الصورة التخيليلة من بداية الآية ، وهى بدل اشتمال من قوله : "رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ " لذا لم تعطف عليها لكمال الاتصال .

وفيها تصوير عن طريق الاستعارة التصريحية التبعية حيث شبه الإبادة والإهلاك بالوطء بالأرجل ، لأن " الوطء فى الأصل الدَّوس بالقدم فسمى به الغزو والقتل ،لأن من يطأ على الشىء برجله ،فقد استقصى فى هلاكه وإهانته "[٢].

ومن ذلك قول الحارث بن وهلة الذهلى :

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤/ ١٩٣.
(٢) لسان العرب : ٦/ ٤٨٦٣ مادة وطأ .

ووطئنـــا وطـــأة علـــى حَنَـــق ∴ وَطْءَ المقيـــد نابـــت الهـــرم [١]

ويعقب الله – عز وجل – على القتل والإهلاك بقوله : " فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ " فالعطف بالفاء أفاد الترتيب والتعقيب الزمنى : أى بمجرد وقوع الوطء تكون المعرة.

والفعل "تُصِيبَكُم" جاء خطاب للمؤمنين لإظهار رحمة الله بهم مع دلالة الفعل المضارع، فإن المعرة لا تلحقهم فقط وإنما تصيبهم إصابة مفجعة تدخل عليهم الحزن؛ لأنهم قتلوا وأهلكوا من اتصفوا بالإيمان فإن معنى "تُصِيبَكُم " أصابه بكذا أى فجعه به وهى تحمل معانى الصابة والمصيبة"[٢]

وفى تقديم شبه الجملة " مِّنْهُم " على المسند إليه " مَّعَرَّةٌ " يفيد تخصيص الإصابة بالمعرة من ناحيتهم ، فإن هذه المعرة لن تلحق المؤمنين المخاطبين إلا بوطء المؤمنين والمؤمنات الموجودين فى مكة فهو قصر الصفة على الموصوف، لأن المقصود بالمعرة الأذى [٣].

"فهو مصدر ميمى من عرّه إذا أصابه بما يكرهه كوجوب الدية والكفارة بقتلهم والتأسف عليهم، وتعيير الكفار بذلك، والإثم بالتقصير فى البحث عنهم"[٤]، وفى تنكير لفظ " مَّعَرَّةٌ " يشعر بالتهويل والتنفير منها،وفى الجملة تصوير عن طريق الاستعارة المكنية حيث شبه ما يلحق المؤمنون من أذى لقتل إخوان لهم فى الدين بمن يصوب سهماً إلى الرمية فيصيبها ويحدث بها ضرراً مستديماً .

وفيه استحضار لتلك الآلام الوجدانية التى نجى الله منها المؤمنين بكف أيديهم عن الكفار.

---

(١) حنق : شدة الغيظ ، المقيد ، الأبل المقيد ، نابت الهرم : اسم لنبت ضعيف . ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٦٥ ، ٦٦ .
وذكر هذا فى قتل أخيه وكان أوله :
قومى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى
(٢) لسان العرب : ٤/ ٢٥٢٠.
(٣) المرجع السابق : ٦/ ٤٢٣١ .
(٤) حاشية الشهاب : ٨/ ٦٦.

وقوله : "بِغَيْرِ عِلْمٍ" نفى لعلمهم بأنهم مؤمنون ، وأنهم لن يعلموا إيمانهم إلا بعد هلاكهم ، وبذلك يظهر حكمة الله الخفية فى منع قتالهم إذ فيه رحمة بهم قال تعالى : ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء﴾اللام للتعليل.

والفعل المضارع "يُدْخِلَ" يشعر باستحضار المعنى مع تجدد واستمرار رحمة الله بعباده ، لذا صرح بالمسند إليه وجعله معرفاً بالعلمية والجار والمجرور "فِي رَحْمَتِهِ" تشعر فى التى للظرفية بأن رحمة الله جعلت كالوعاء الذى يشمل عباده ، ففيه تخييل عن طريق الاستعارة التصريحية التبعية .

فقد جعل الرحمة تشمل العباد شمولاً كلياً ، وإذا استشعر المؤمن أن رحمة الله تحيطه وتشمله من كل اتجاه ، فإن الطمأنينة تتغلغل فى قلبه .

كما جسد الرحمة وهى أمر معنوى وجعلها تشبه الشىء المادى الذى يمكن الدخول فيه وحذفه ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو كلمة "يُدْخِلَ" على سبيل الاستعارة المكنية .

وأكسب المعنى العموم الدلالى من خلال الموصول" مَن " والفعل المضارع " يَشَاء " ، فهذه الرحمة لا تختص بطائفة معينة فهى رحمة متنوعة .

فالله – عز وجل – رحم جيش المؤمنين بأن دفع عنهم ما يكرهون من المعرة.

ورحم المؤمنين والمؤمنات الموجودين فى مكة بنجاتهم من الإهلاك .

وامتدت رحمة الله إلى الكفار أنفسهم بأن أمهلهم واستبقاهم لعلهم يسلمون، أو يسلم أكثرهم.

قال القرطبى [١]: " أى لم يأذن الله لكم فى قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة ، وكذلك كان ، أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه ، ودخلوا فى رحمته ".

---

(١) تفسير القرطبى .

كما أظهرت الجملة أن هذه الرحمة لا تكون فى الدنيا فقط ، وإنما تمتد إلى الآخرة .

كما أظهرت الآية رحمة الله الواسعة بعباده ، والتى خرجت من الانحصار فى مناسبة الآية ، وجعلت معناها عاماً ، فرحمة الله تشمل كل عباده ، وكل من يقرأ الآية فإنها تلقى بظلال هذه الرحمة عليه ، ويستحضرها فى قلبه لأن الله واهبها لعباده على العموم .

ويأت قوله : " لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا " بياناً لقوله "وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ ..." لذا امتنع العطف وتعين الفصل لكمال الاتصال ، ففى جملة : " وَلَوْلا رِجَالٌ . . . " إيهام أوضحه قوله " لَوْ تَزَيَّلُوا ... " لذا جاء بدون الواو ؛ لأن هذا القول يوضح المانع من عدم قتال الكفار فى مكة ويشرح تفاصيله ، ولو أنه ذكر الواو ، لتغير المعنى تماماً وكانت المفارقة والتمايز بين فريقى المؤمنين والكافرين شيئاً وعدم قتالهم شيئاً آخر ، وسوف يتضح هذا جلياً مع تتبع البناء التركيبى للجملة حيث بدأها بآداة الشرط "لو" التى تفيد امتناع الامتناع ، فقد امتنع جوابها لامتناع الشرط وجعل الشرط " تَزَيَّلُوا " [1] يعود على ما دل عليه قوله : "وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ ... "

حيث اختلاط المؤمنون بالكافرين، فلو اقترن وتميز أهل الإيمان من أهل الشرك، لسلط الله المؤمنين على أهل الشرك فلحقهم العذاب الأليم فى الدنيا بأيدى المؤمنين، وفى الآخرة ينتظرهم عذاب الله – عز وجل –.

وصيغة الفعل " تَزَيَّلُوا " تقتضى أن يكون طرفان فى الكلام فهو استحضار للفريقين من المؤمنين والكافرين ، وإن كان يجمعهم مكان واحد وهو مكة المكرمة لكنهم مختلفون ومتباينون حيث يفرق بينهم الإيمان ،

---

(١) تزايلوا : تيابنوا . أساس البلاغة ص ٢٨٠ .
تزيل فتزيل : مزقه فتفرق ، ويزيل القوم تزيلاً : تفرقوا . وزايله مزايلة . بارحه. والمزالية : المفارقة . لسان العرب : ٣/ ١٩٠١ مادة ذيل.

وكان كل فريق منهما يدفع الآخر ليتميز عليه ولكن لشدة الاختلاط بينهما عبر بأداة الشرط "لو" ليظهر عدم إمكانية معرفتهم من بعضهم البعض بالنسبة للرسول – ﷺ– وأصحابه الذين حضروا الحديبية ؛ لأن المؤمنين الذين كانوا فى مكة أخفوا إيمانهم درءاً لخطر الكفار عليهم.

وإسناد التعذيب إلى الله – عز وجل – " لَعَذَّبْنَا " عبر ضمير المتكلم يلقى بالخوف والرهبة فى نفوس الكافرين فالله – عز وجل – يأمر بعذابهم، ففى الجملة مجاز عقلى بعلاقة السببية ، فقد خرجوا عن دائرة الإيمان ، وتمسكوا بكفرهم فكان عقاب الله لهم.

كما أن مادة الكلمة "العذاب" تشعر باستحضار الألم الجسدى والمعنوى الذى يلحقهم من شدة عقاب الله لهم .

وفى تعريفهم بالموصولية " الَّذِينَ كَفَرُوا " تصريح من يقع عليه العذاب، وقصد ذمهم بما فى حيز الصلة ، فإن العذاب يلحقهم لإصرارهم على الكفر ، لذا جاء شبه الجملة " مِنْهُمْ " مؤكداً على تلك الحقيقة .

وتختتم الآية بتكرار مادة العذاب" عَذَابًا أَلِيمًا "إظهاراً لشدته ، ووصف العذاب بالأليم دون الوقوف على كنهه ، ليظل مطوياً عنهم ،أ ففيه بث للخوف والرهبة فى نفوسهم .

وكان الالتفات فى الآية من الغيبة ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ إلى التكلم " لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا ...". فالتفت بذلك من أسلوب الغيبة بالاسم الظاهر "الله" إلى أسلوب التكلم بضمير المتكلم " لَعَذَّبْنَا " ؛ وذلك لأنه تعالى حين تحدث عن رحمته ناسب ذلك الاسم الأعظم"الله" لما يحمل من معانى الجلال والقدرة، وحين تحدث عن عذاب الكفار ناسب ذلك ضمير التكلم لما فيه من زيادة تأكيد وقوع العذاب لهؤلاء الكفار.

وفى الآية جمع من التفريق حيث جمع الله كل عباده تحت حكم واحد وهو الدخول فى رحمته ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء﴾ .

وفرق فكان الكفار لهم العذاب الأليم : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وترتبط الآية بما بعدها وهو قوله تعالى : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾. **إن الآيتين يرتبطان ببعضهما برباط معنوى لأمرين:**

الأول : تعين الفصل بين الجملتين وامتنع الوصل بالواو العاطفة ،وذلك لشبه كمال الاتصال حيث جاءت الآية الكريمة إجابة لسؤال اقتضته الآية السابقة بفحواها تقديره : لماذا صد الكافرون المؤمنين عن المسجد الحرام وقد جاءوا إليه معظمين حرمة الكعبة يسقون الهدى .

فكانت الإجابة من خلال الآية الكريمة أنهم صدوا المؤمنين لا لعقيدة لهم ، وإنما هى حمية الكبر ، فلا عذر لهم إلا حمية الجاهلية التى سيطرت عليهم ، وغطت على قلوبهم .

الثانى : بدأت الآية بـ "إذ" ظرف متعلق بفعل"لَعَذَّبْنَا " أو "صَدُّوكُمْ". **والتقدير** لعذبناهم أو صدوهم عن المسجد الحرام في ذلك الوقت"[١].

وبهذه البداية ترتبط الآية بسابقتها وتجعل المتلقى فى شغف للوقوف على ما بعدها فإذا هو حديث عن الكافرين ، وكان البناء التركيبى من بدايته مشعراً بذمهم : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾.

وتعريف المسند إليه بالموصولية " الَّذِينَ كَفَرُوا " لذمهم بما فى حيز الصلة وهو الكفر ، وجاء ذلك على خلاف مقتضى الظاهر حيث تم ذكرهم فى الآية السابقة. فهو يؤكد على ذمهم بكفرهم.

(١) الكشاف : ٦ / ٨.

وتقديم الجار والمجرور " فِي قُلُوبِهِمُ " فكان الجعل مقدماً على المجهول وهو " الْحَمِيَّةَ " ليحمل قدراً من لفت انتباه المتلقى نحو أهمية القلوب ودورها فى صلاح المرء أو فساده ، والسورة رسخت هذا المعنى فى ثناياها، وجاء لفظ القلوب فى جانب المؤمنين والكافرين على حد سواء .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة الفتح آية ٤].

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [سورة الفتح آية ١٨].

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الاعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [سورة الفتح آية ١١].

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ [سورة الفتح آية ١٢].

والحمية : عبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية فقيل حَمِيتُ على فلان أى : غضبت عليه [١].

ويتضح من مدلولها ذم هؤلاء الكافرين الذين منعوا المؤمنين من أداء العمرة بسبب تلك الحمية فقط ، وزيادة فى المبالغة بذمهم والإشعار بالنفور من فعلهم كرر الحمية معرفة بالإضافة بعد تعريفها باللام للعهد فقال "حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ "، فهى بيان للحمية ، وكان القصد منه الإجمال ثم التفصيل لغرض بلاغى : وهو تأكيد وتقرير هذا الحكم لهؤلاء الكافرين .

(١) المفردات : ص ١٣٢.

وفائدة التعريف بالإضافة : لقصد الذم والتحقير ، وتشنيع فعلهم ، وقد ورد هذا التركيب فى القرآن الكريم دالاً على الذم فى أكثر من موضع.

قال تعالى : ﴿يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (١) ففيه ذم لظنهم الباطل وقد ارتبط بالجاهلية .

وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢) فهو استنكار لحكم الجاهلية .

وتنتقل الآية للحديث عن المؤمنين: "فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ".

تعددت نعم الله – عز وجل – وعطاياه على عباده المؤمنين ، فكانت النعمة الأولى : إنزال السكينة عليهم.

وتبدأ النعمة بالفاء العاطفة التى تؤكد المدلول الزمنى ، وأنه أعقب الصد من الكفار إنزال السكينة عليهم ، ففيه بيان لسرعة النزول وكأن السكينة كانت محفوظة عند الله – عز وجل – للمؤمنين بنزلها وقتما أراد حسب ما تقتضيه حكمته – عز وجل – .

وتعريف المنزل الله – عز وجل – باسمه الجامع تشريفاً وتكريماً للمؤمنين وهو أنسب للمقام لما يحمل من معانى الجلال والقدرة.

ويبين نوع النازل " سَكِينَتَهُ " فكانت الطمأنينة والسكون النفسى من لدن رب العزة – عز وجل – وأحال الضمير إلى لفظ الجلالة، ليؤكد على تعظيم قدر المنزل عليهم، والذى صرحت الآية الكريمة بهم بالتفصيل "عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ " فذكر إنزال السكينة على الرسول– ﷺ– إظهاراً لرسالته ، والتى كانت مصدراً رئيسيا فى تعنت الكافرين ، وصد المؤمنين عن المسجد الحرام حيث قالوا فى ثنايا الصلح " لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك" (٣).

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٤ .
(٢) سورة المائدة آية ٥٠ .
(٣) الكشاف : ٦ / ٨.

وعطف عليه " وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ " ففى الجملة إيجاز بحذف جملة والتقدير أنزل الله سكينته على المؤمنين ليجمع بين ثنائية الرسول – ﷺ– والمؤمنين ، وقد اشتركا فى عطاء الله – عز وجل – .

وبذلك ينتقل المتلقى من النفور النابع من حمية الجاهلية ، والتى اتسم بها الكافرون ، إلى الطمأنينة التى وصف بها الرسول – ﷺ– ومن معه من المؤمنين.

فالتصوير جاء بالمقابلة والموازنة بين حالتى الكفار والمؤمنين .

إن البناء التركيبى فى الآية يجعل المتلقى يعيش صورة تخيلية من خلال الاستعارة المكنية حيث شبه الله السكينة وهى أمر معنوى بالشىء المادى الذى يحفظ ويخرج فى الوقت المناسب، وقد زاد من تعظيمها أن جعلها تهبط من أعلى، فكان الاستعلاء المعنوى بمنزلة الاستعلاء الحسى من خلال حرف الجار والمجرور على رسوله، وعلى المؤمنين فهى محفوظة عند الله – عزوجل – فهو واهبها ومنزلها عليهم . فكانت الاستعارة التصريحية التبعية .

إن الاستعارتين امتزجتا وجعلت المتلقى متعايش مع تلك الصورة ليخرج منها إلى عطاء آخر للمؤمنين وهو : " وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى " .

إن نظم الجملة يشعر بدفع القلوب لمحبة التقوى حيث تخلق بها المؤمنون ، وكان التصوير الاستعارى يشعر بهذا الإلزام .

حيث شبه المداومة على التقوى بالإلزام على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، ليؤكد على عدم مفارقتهم لها ، فهى ملازمة لهم فى كل تصرفاتهم فهى قولاً باللسان وعملاً بمدلولها.

وتطلق كلمة على المفرد ، ويراد بها الكلام .

قال تعالى : ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(١). فالمقصود بالكلمة لا إله إلا الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٢).

---

(١) سورة المؤمنون آية ١٠٠ .
(٢) سورة الزخرف آية ٢٨ .

فالمراد بها قول إبراهيم لأبيه وقومه: ﴿ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾[١].

" وقيل هى كلمة الشهادة ... أو هى الوفاء بالعهد ، ومعنى إضافتها إلى التقوى أنها سبب التقوى "[٢].

والمعنى فى الآية يتطلب الأمرين معاً ، فالتقوى تتطلب بداية التوحيد، فقد حقق التقوى لفظاً ، وكان الوفاء بالعهد عند المؤمنين دليلاً عملياً عليها حيث أمرهم الله – عز وجل – بالالتزام بالمعاهدة ، ولا ينقضوا العهد ، وهذا ما التزم به المؤمنون حتى بدأ المشركون فى نقض العهد.

ويذكر الله عطاء آخر للمؤمنين عبر الواو العاطفة " وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا " الجملة الخبرية القصد منها الثناء على المؤمنين ؛ لأن الله يشهد لهم بأحقيتهم بالتقوى.

وبدأت الجملة بالفعل الماضى كانوا " ليفيد تحقق وثبوت الأحقية للمؤمنين ، ولفظ : "أحق" أفعل تفضيل لزيادة أحقيتهم .

والمفضل عليه محذوف ، ففى الجملة إيجاز بالحذف ، لتذهب النفس فى تخيله كل مذهب ، وتكسبه العموم الدلالى ، فتخرج من التخصيص بكفار مكة فى زمن نزول الآية ، لتشمل جميع الأمم فى كل زمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فالمؤمنون ، أحق بكلمة التقوى من جميع الأمم ، لأنهم خير أمة أخرجت للناس ، وذلك لتعمق الإيمان فى قلوبهم والتزامهم بكلمة التقوى.

وعطف جملة "وأهلها" مع إضافة الضمير العائد على المؤمنين لزيادة الأحقية وحتى تشمل الدنيا والآخرة فهم أحق بها فى الدنيا ، وأهلها بالثواب فى الآخرة .

كما يفيد التصوير الكنائى ، فهى كناية عن تمسكهم بالتقوى وشدة الصلة التى تربط بينهما .

---

(١) سورة الزخرف آية ٢٧ .
(٢) الكشاف : ٦ / ٨ .

وتتـزين الآيـة بلـون التوجيـه ففيهـا مـدح للمـؤمنين الـذين التزمـوا بـالتقوى وتمسكوا بها .

وذم للكافرين : الذين فضلوا حمية الجاهلية على تقوى الله – عز وجل – لذا ضلوا الطريق، ومنعوا المؤمنين من دخول المسجد الحرام.

وختمت الآية بقوله :"وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا " تذييل مقرر لمضمون الآية .

فالله – عز وجل – يعلم ما انطوت عليه قلوب المؤمنين من إيمان عميق به – سبحانه– لذا استحقوا عطايا الله ونعمه ، ومنها إنزال السكينة عليهم.

– إلزامهم كلمة التقوى . وهم أحق بها وأهلها .

وهو ختام قوى للآيتين ، وارتكزت الجملة الخبرية على الفعل الماضى الذى أكسب المعنى التحقق والثبوت ، فقد سبق علم الله بذلك ، وكان لفظ الجلالة "الله"ليلقى بظلاله على هيمنة الله على الوجود ، والتى تبعث السكينة والطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، والخوف والرهبة فى نفوس الكافرين، واكتسب علمه العموم والشمول من خلال لفظ "كل" الدال على العموم بمدلوله مع تنكير لفظ " شَيْءٍ " وجعل العلم فى ثوب المبالغة فعيل .

والمتأمل فى الختام يجده يحيل المتلقى إلى قوله : ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾.

فالمؤمنون المبايعون فى الحديبية لا يعلمون عن إخوانهم المؤمنين فى مكة شىء ، لأنهم أخفوا إيمانهم خوفاً من الحمية الجاهلية للكافرين فقوة الغضب من الرسول– ﷺ– والمؤمنين أعمت أبصارهم ، وغطت قلوبهم حتى منعوهم من دخول البيت الحرام ، لذا فإن علم الله قد أحاط بهم ، واقتضت حكمته أن يقبل المؤمنون صلح الحديبية حفاظاً على إخوانهم فى مكة .

وهكذا فإن المؤمنين يركنون إلى خالقهم العليم بكل شىء فى الوجود ، يعلم ما فيه الخير والنفع لهم وهذا ما تؤكده الآيات التالية :–

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

بدأت الآية بداية لافتة حيث تأكيد الجملة الخبرية بالقسم ، واللام "قَدْ" حتى يزيل الإنكار الذى وقع فى نفوس بعض الصحابة" فقد رأى رسول الله – ﷺ– قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه دخلوا مة آمنين وقد حلقوا وقصروا فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها فى عامهم ، وقالوا إن رؤيا رسول الله – ﷺ– حق، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبى ، وعبد الله يبن نفيل ، ورفاعة بن الحرث والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت "[١].

وتشير الآية إلى إظهار الله مع رسوله ، فيأت تعريف المسند إليه بالعلمية، لأن هذا من الأمور الغيبية التى يختص علمها به – تعالى – وأضاف رسوله إلى الله تعالى – تعظيماً وتشريفاً له – ﷺ– وإعلاناً بأهمية ما يذكر بعد .

وقيد الجملة بالجار والمجرور "الرؤيا"منصوب بنزع الخافض[٢].

قال صاحب الكشاف [٣]:

" أى صدق فى رؤياه، ولم يكذبه، تعالى الله عن الكذب، وعن كل قبيح علواً كبيراً، فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله تعالى: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[٤].

وقوله: " بالحق" الباء للملابسة ، والحق صفة لمصدر محذوف أى: صدقاً ملابساً للحق "فإنما رآه كائن لا محالة فى وقته المقدر له وهو العام القابل"[٥].

والغرض منه : التمييز بين المؤمن المخلص فى إيمانه ،وبين من فى قلبه مرض ، فهى ابتلاء من الله تظهر فيها حكمته – تعالى – ويمكن أن يكون الجار

---

(١) الكشاف ٦ / ٨ .
(٢) إعراب القرآن وبيانه ٧/ ٢٣٧.
(٣) الزمخشرى الكشاف ٦/ ٨ .
(٤) الأحزاب آية ٣٢ .
(٥) حاشية الشهاب : ٨ / ٦٨ .

والمجرور حال من "الرؤيا" أى صدقة الرؤيا ملتبساً بالحق ، فهى حقيقة ، فرؤيا الأنبياء وحى وليست أضغاث أحلام.

وقوله : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ . . . ﴾.

اللام موطئة لقسم محذوف والتقدير والله لقد حلق .... وتأكيد الجملة الخبرية لتحقيق الخبر وبيان أهميته ، ودل زمن المضارع على أن الدخول سيكون مستقبلاً.

وجاء الخبر خطاب للمؤمنين تشريفاً وتكريماً لهم ، والتعبير عن مكان الدخول " الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ " كناية عن التمكن من دخول مكة بدليل دخول المسجد الحرام.

وفيه : إشعار بتعظيمه فهو مكان للعبادة ،وتميزه عن غيره بأن وصفه بالحرام :تذكيراً بحرمة القتال فيه.

ويمكن أن يكون مجاز مرسل بعلاقة الجزئية حيث ذكر جزء من مكة المكرمة وهو المسجد الحرام تعظيماً له ، وبيان أن المؤمنين لا يريدون دخول مكة إلا لآداء العمرة ،وجاءت جملة " إِن شَاء اللَّهُ " اعتراضية . **وبلاغتها** : تعليم للمؤمنين بعدم التعلق بالأسباب المادية ،وإنما يجب عليهم تعليق أمورهم بالله – عز وجل – .

" ففيه تعليق لعدته بالمشيئة تعليما لعباده، فقد أراد بهذا النظم أن يقولوا فى عداتهم مثل ذلك متأدبين بأدب الله ومقتدين بسنته"(١).

وفيه استحضار لقوله تعالى : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلا أَن يَشَاء اللَّهُ﴾(٢).

وجاء الأمن حالاً فقال " آمِنِينَ " فقد جعل للمسجد الحرام الوصف "الْحَرَامَ ": وجعل للمؤمنين هيئة الأمن مصاحبة لدخولهم ، وهو ما ينمى عندهم الشعور بالطمأنينة

(١) الكشاف : ٦ / ٩.
(٢) سورة الكهف ٢٣ ، ٢٤ .

والرضا فى تحقيق أدائهم للعمرة ، وقد أثبت لهم السكنية فى قلوبهم ، وأعلن عنها بقوله " آمِنِينَ "

وجاء الحال : " مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ " كناية عن تمكنهم من إتمام العمرة بدليل أن بعضهم سيتمكن من الحلق ، والآخر من التقصير.

ففيه الكلام حسن تقسيم فلا ثالث لتلك الحالة ، وفى تقديم "مُحَلِّقِينَ" إظهار فضل الحلق ، فقد ثبت عنه – ﷺ– أنه قال(١) .

" رحم الله المحلقين قالوا والمقصرين يا رسول الله قال – ﷺ– رحم الله المحلقين قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال – ﷺ– رحم الله المحلقين قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال – ﷺ– والمقصرين فى الثالثة أو الرابعة.

وأراد بث الطمأنينة فى نفوسهم فكان نفى الخوف " لا تَخَافُونَ " فكان النفى بـ "لا" التى تفيد امتداد النفى " تأمل حرف لا كيف تجدها لاما بعدها ألف يمتد بها الصوت مالم يقطعه ضيق النفس والفعل المضارع "تَخَافُونَ " يؤكد على استمرارية عدم الخوف ،وأنه وصف لهم ، فأذن ابتداء لفظها بابتداء معناها"(٢).

"أريد لا تخافون تبعة من الحلق أو التقصير، ولا نقص ثواب"(٣).

وعلى ذلك يكون " لا تَخَافُونَ " حال من الضمير فى آمنين ، أو تعتبر استئناف بيانى فبين الجملتين شبه كمال الاتصال ، فجملة " لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ...." يشعر بسؤال تقديره"كيف حالهم بعد الدخول وعند الخروج".

فكان الأمن عند الدخول ، ونفى الخوف عنهم فى حالة المكث والخروج ، وفى ذلك إشارة أنهم سيكونون أقوى من عدوهم ،وهذا ما اقتضته حكمته – تعالى – من تأخير العمرة إلى العام المقبل حتى يزداد المؤمنون قوة على أعدائهم .

---

(١) فى الصحيحين البخارى فى صحيحه كتاب الحج حديث ٣١٧/٤ حديث ١٧٢٧ – صحيح مسلم ٩٤٥/٢ حديث ١٣٠١ .
(٢) بدائع الفوائد ١/ ٩٥.
(٣) حاشية الشهاب ٨ / ٦٨ .

وبذلك تكون الآية الكريمة تبشير للمؤمنين الذين حضروا البيعة أنهم سيتمكنون جميعهم من أداء العمرة فى العام القابل ، وهذا عطاء من الله لهم ويظهر رحمته بعباده المؤمنين لذا قال : " فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا".

عقب على دخول المسجد الحرام بثبوت علمه تعالى ونفى العلم عنهم .

وقد أشارت السورة الكريمة على تحقيق صفة العلم لله – عز وجل – فى أكثر من موضع .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ .

وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيمًا ﴾ .

لأن السورة تتحدث فى مجملها عن فتح لا يعلم كنهه إلا الله – عز وجل –والجملة تعريض بذم الذين قالوا فى الحديبية " والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا البيت.

وافتتحت الأية بقوله : ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ فآخر ذكر الفتح ليرتبط آخر السورة ببدايتها .

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ .

﴿ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾.

والتعبير بالفعل الماضى "جعل" بدلاً من المستقبل حيث نزل المستقبل منزلة الماضى للتأكيد على تحقيقه وثبوته .

وأوثر التعبير بلفظ "جعل" دون فتح ليشير إلى أن هذا الفتح مجهول فى الحال ، فهو أمر عجيب ما كان ليحصل لولا أن الله – عز وجل – أخبر عنه ، فقد اكتسب الفتح تحقيقاً لثبوته بداية من زمن الفعل ، ومن مادته المعجمية وكانت الإشارة بالبعيد "ذلك" والمراد فتح مكة ، لعلو مكانتها وتعظيمها فى نفوس المؤمنين.

وتجعل المتلقى يرتبط بدلالات الآيات السابقة ، وهو ما يحدث التفاعل والتدبر فى آيات الله – عز وجل –

قال تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (١).

وجاء تنكير " فتحاً" ووصفه بقوله "قريباً" لتعظيمه كما يشمل الفتح صلح الحديبية لما ترتب عليه من آثار حميدة ، وعواقب جليلة .

" فإنه لما انعقد الصلح ، وارتفعت الحرب ، ورغب الناس فى الإسلام ، فكان رسول الله – ﷺ– فى غزوة الحديبية فى ألف وأربعمائة ، وغزا غزوة الفتح بعدها بعامين ومعه عشرة آلاف"(٢).

ويشمل أيضاً فتح خيبر لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾(٣).

* * *

(١) سورة محمد آية ٢٤.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٥٦/٤.
(٣) سورة الفتح آية / ١٨.

المبحث الثالث

مع ختام السورة

ثناء الله على رسوله وعلى المؤمنى

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

بعد أن ذكر الله – عز وجل – صدق وقوع رؤيا الرسول – ﷺ – وكانت هذه الواقعة قد خفى على بعض القلوب حكمتها فبين تعالى حكمتها وصفتها ، وأخبر بحكم عام وهو إرساله رسوله محمد – ﷺ– بالعلم النافع ، وأيده بمعجزة القرآن الكريم الذى هو المنهج للدين الإسلامى ليكون تزكية للقلوب ، وتطهيرا للنفوس ، وتربية للأخلاق .

وقد بدأت الآية الكريمة بتعريف المسند إليه بضمير الغيبة "هو" العائد على لفظ الجلالة فى الآية السابقة " لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ " وفيه تحقيق وتأكيد لصدق الرؤيا . وأنها وحى من الله – عز وجل – وما كان لأحد إنكارها ، أو التردد فى شأنها .

وبلاغة التعريف بضمير الغيبة : ليجعل هذه الرؤيا من الغيبيات التى ينطوى علمها على الله – عز وجل – ويجب التسليم لها والإيمان بها فور سماعها .

وفى تعريف المسند بالموصولية " الَّذِي " لزيادة التحقيق والتأكيد ، لأن الموصول يفيد العلم بمضمون الصلة ، فإن إرسال الرسول من لدن الله يجعل كل ما يخبرهم به – ﷺ – صدقاً ، وفى هذا تعريض بذم من أنكر الرؤيا ، كما فيه زيادة فى اللوم والتقريع .

ويؤثر النظم القرآنى لفظ " أَرْسَلَ " دون بعث لأن الإرسال يقتضى أن يكون معه رسالة يلتزم بإبلاغها وهو يشير دائما إلى رسالة الإسلام ومنهجه القرآن الكريم أما البعث فلا يلزم " ذلك " فيجوز أن يبعث الرجل إلى الآخر للحاجة يخصه دونك

ودون المبعوث إليه كالصبى تبعثه إلى المكتب فتقول بعثته ولا تقول أرسلته أن الإرسال لا يكون إلا برسالة" (١).

والتعبير " برسوله" مضافاً إلى الله فيه تشريف وتكريم كما يفيد التأكيد على الصلة القوية التى تربط بينه- ﷺ- وبين ربه .

فهو مؤيد منه بالمعجزة الدالة على صدقه ، وقد ذكرت هذه المعجزة مصاحبة له - ﷺ- فقال "بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ " الباء للمصاحبة (٢)، والمراد بالهدى . القرآن الكريم.

أطلق السبب وأريد المسبب ، فهو مجاز مرسل بعلاقة السببية ، فالقرآن الكريم سبب لهداية الناس ، فهو المعجزة الخالدة التى تشهد على صدق الرسالة المحمدية ، والذى يلزم فيها صدقه فى غيرها ، فقد اتبع معهم أسلوب الحكيم (٣)، فلم يرد عليهم بضرورة تصديق الرسول - ﷺ- فيما يخبر صراحة ، ولكنه أتى بما يشهد على صدقه ، وتحدث عن القرآن الكريم مخبراً عما يحدثه فى النفوس من الهداية ، والقلوب من التزكية ، والأخلاق من التربية ، وفيه إعلاء لقدره - ﷺ-.

وبذلك يؤلف القلوب على محبة القرآن الكريم والتعلق والتمسك به، والقرآن الكريم جاء ذكره بلفظ الهدى فى أكثر من موضع .

قال تعالى : "مفتتحاً" سورة البقرة . ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

وقال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (٤).

---

(١) الفروق ص ٢٢٢.

(٢) قال المالقى : المصاحبة وهى التى تعطى معنى مع نحو قولك : جئت به قال تعالى : "فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ " [طه آية ٧٨] أى مع جنوده". ينظر رصف المبانى ص ١٤٤.

ومنه قوله تعالى : " قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ " [النساء آية ١٧٠]

(٣) أسلوب الحكيم: وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على غير مراده. الإيضاح ص ١٠٧ تحقيق أ.د/ عبد القادر حسين.

(٤) سورة البقرة آية ١٨٥.

وعطف " وَدِينِ الْحَقّ على " الْهُدَى " أى دين الإسلام [١].

وهو من عطف العام على الخاص ؛ لأنه يشمل القرآن ، وجميع شرائع الإسلام وفروعه سوى القرآن من كل ما أوحاه الله إلى رسوله من سنته المطهرة والتى لم يقصد بها إلا الإعجاز .

وقد أضاف الحق إلى "دين" ليؤكد على أن الدين الإسلامى هو الحق الثابت الذى لن يتغير إلى يوم القيامة وهو ختام الأديان السماوية.

وتأت الجملة التعليلية " لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ " فقوله : " لِيُظْهِرَهُ " اللام للتعليل[٢].ويعود الضمير على الدين الإسلامى فى قوله " دِينِ الْحَقّ".

والمراد من الإظهار : العلو والارتفاع "ظهر على الشىء إذا عليه وعلاه يقال ظهر فلان الجبل إذا علاه"[٣].

فكان التصوير عن طريق الاستعارة المكنية حيث شبه الدين الإسلامى بالشىء المادى المحسوس الذى يرتفع على غيره وحذفه ورمز إليه يشىء من لوازمه وهو الظهور ، ويراد به البيان والوضوح بعد الخفاء[٤].

ومزج بين الاستعارة المكنية والتبعية حيث استخدم حرف "على لينزل الاستعلاء المعنوى منزلة الاستعلاء الحسى تأكيداً على غلبة الدين الإسلامى ، وهو يشير بذلك بأن الدين الإسلامى فيه مقومات القوة والغلبة ما تجعله يظهر ويعلو على الأديان الأخرى.

---

(١) حاشية الشهاب / ٦٩.

(٢) قال ابن مالك " اللام للتعليل " وتساوى لام التعليل معنى وعملاً " كى " ينظر تسهيل الفوائد ص ١٤٥ .

ومنه قول امرئ القيس فى معلقته

فيا عجبا من رحلها المتحمل ويوم عقرت للعذارى مطيتى

ينظر شرح شواهد المغنى للسيوطى ص ١٥٩ ، ١٩٠

(٣) لسان العرب : ٤/ ٢٧٦٩ مادة ظهر.

(٤) المعجم الوسيط ٢/ ٥٧٨.

وتعريف "الدين" باللام لإرادة الجنس : أى أرسل الله – عز وجل – بالدين الإسلامى ليظهر هذا الدين على جميع الأديان الإلهية السابقة ؛ لذا أكده بلفظ العموم "كله" لأنه فى معنى الجميع .

وبذلك يلتقى صدر السورة مع ختامها : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ ليؤكد على أن هذا الفتح فيه غلبة للدين وظهوره على جميع الشرائع ، وجاء ذلك تصريحاً فى ختام السورة لا تلميحاً كما فى بدايتها.

وكان ختام الآية قوياً باعثاً الطمأنينة فى قلوب المؤمنين " وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ". حيث ارتبطت الجملة بسابقتها لما بينهما من التوسط بين الكمالين حيث اتحدتا فى الخبرية ، واتحد المسند إليه فيهما ، فجاء مضمراً فى الجملة السابقة ، وظاهراً فى هذه الجملة "الله" والغرض منه استحضار الذات الإلهية فى مقام الجلال والقدرة ، ليؤكد على صدق رسوله– ﷺ– فى رؤياه، وفى رسالته ، فهو المؤيد له ، وشاهد على غلبة دينه الحق ، وكانت صيغة المبالغة فعيل " شَهِيدًا ".

كل ذلك تقوية للرسول – ﷺ– وللمسلمين.

والآية تلقى بظلالها بهذا البناء التركيبى إلى أهمية التمسك بالمنهج وهو القرآن الكريم و التمسك بمقومات الدين الإسلامى الحقيقية التى لا تهاون فيها ولا تعصب ، فهو دين ختم الله به جميع الشرائع السماوية إنه يشملها كله ، لذا ظهر على الدين ، ومنزل الرسالة . شهيد على ذلك : "وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا "[1].

قال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ

---

(١) الباء زائدة للتأكيد فى الفاعل " بالله"
" قال سيبويه : وقد تكون باء الإضافة بمنزلتها فى التوكيد .
والباء تزاد مع الفاعل ، وأما زيادتها مع الفاعل ففى موضعين أحدهما " كفى بالله شهيداً" .
وردت هذه الجملة فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم منها :
سورة الرعد آية ٤٢ . سورة النساء آية : ٧٩ .
ينظر الكتاب ٢٦/٢ ، إعراب القرآن للزجاجى ٢/ ٦٦٩ . الخصائص ٤٨٨/٢ ، المفضل بشرح ابن يعيش : ٢٣/٨ .

فِي الانجيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

تبدأ الآية الكريمة بالثناء على الرسول – ﷺ– والصحابة – رضوان الله عنهم –

وقد بدأها بداية لافتة حيث عرف المسند إليه بالعلمية[١] "محمد".

وفيه مدح له – ﷺ– وإحضاره بشخصه حتى تتميز هذه المعانى ، وكأنها أجناس متغايرة ، حيث أخبر الله عن الرسول فى آيات سابقة : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ . ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

والمتلقى عندما يطالع هذه الأخبار فقد انفعل بها ، وامتلأت نفسه شوقاً إلى بيان من المتحدث عنه بهذه الأخبار ؟ فيأت الجواب بتعريفه بالعلمية ليتميز المعنى، ويكشف عن مناقبه فيقال : محمد رسول الله ، فيفيد كمال المبالغة فى المدح ، وفيه تعريض بذم المشركين حيث امتنعوا أن يكتب فى صلح الحديبية : " هذا ما قاض عليه محمد رسول الله ، وقالوا لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت".

وتحيلنا الآية الكريمة إلى صدر سورة محمد التى فيها مدح للمؤمنين حيث قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [٢].

---

(١) عرف بالعلمية لاستحضارة بعينه فى ذهن القارئ أو السامع تعظيماً لـه – ﷺ – وصرح باسمه فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع وهى آيات محددة .
"محمد " اسم عربى وهو مفعل من الحمد والتكرير فيه للتكثير وهو منقول من الصفة على سبيل التفاؤل أنه يكثر حمده . ينظر إعراب القرآن وبيانه ١٨٧/٧ .

(٢) سورة محمد آية ٢ .

وجملة : "رسول الله" تعريف المسند بالإضافة ليكتسب المضاف التعظيم والتشريف من المضاف إليه .

كما فيه تكرار بوصف الرسول- ﷺ- بالرسالة فقد جمع بين التعريف بالعلمية والتصريح بوصفه إخباراً ، زيادة فى التعريض بذم المشركين ، فالصفة المعتبرة فى حقه- ﷺ- هى كونه رسول الله ، أما غيرها من الصفات فلا تكاد توجد مبالغة فى الرد على كل من ينكر رسالته - ﷺ- لذا لم يذكر بهذا الوصف فى الآية المذكورة سابقاً فى سورة محمد.

ويأت الحديث عن الصحابة الكرام " وَالَّذِينَ مَعَهُ" بالعطف مع تعريفهم بالموصولية لقصد الجمع بين ثنائية الرسول- ﷺ- والمؤمنين ، ومدحهم بما فى حيز الصلة.

وفى التعبير بالظرف "معه" تأكيد للمصاحبة والتأييد الذى يجمع الرسول - ﷺ- والصحابة ، فهم يطعونه ويؤيدونه فى كل ما يخبر به ، ففيه مدح للصحابة الذين حضروا الحديبية .

وبأت الخبر موضحاً وصفهم فقال : " أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ " فأخبر عن المعاملة الظاهرية وما فيها من تباين واختلاف.

فهى فى جانب الكفار الشدة، وفى جانب المؤمنين الرحمة، فبين لفظى أشداء، رحماء طباق خفى[1]، لأن الرحمة وإن لم تقالا الشدة مسببه عن اللين المقابل للشدة .

كما ذكر – ﷺ بالعلمية فى قوله تعالى : " وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ " [سورة آل عمران آية ١٤٤] وقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب/آية ٤٠].

وجاءت كلها فى فى المواضع التى تحتاج إلى العناية بإقرار الاعتقاد فى القلوب.

(١) الطباق الخفى : الجمع بين معنيين يتعلق أحدهما بما يقابل الأمر مثل السببية واللزوم – ينظر خُلاصة المعانى للحسن بن عثمان المغنى تحقيق د/ عبد القادر حسين ص ٤٠٧.

" وسر التعبير بالرحمة : أن اللين قد يكون عن ضعف ، أما الرحمة فلا تكون إلا عن قوة وهو ما يمتدح به "[١].

يقول ابن يعقوب [٢]:

" جمع فى الآية بين الشدة والرحمة ، ومن المعلوم أن الرحمة لا تقابل الشدة ، فإن الرحمة إنما تقابلها الفظاظة ، والشدة يقابلها اللين ، لكن الرحمة مسببة عن اللين".

وللطباق الخفى بلاغته فى الآية الكريمة ، فهو يجمع بين الصفتين المتضادين اللتان لا تظهران إلا بعد التفكر والتدبر، ليظهر مدى حكمة المؤمنين فى تعاملاتهم الظاهرية ، فهم فى جانب عدوهم يظهرون الشدة والقوة ، أما فى معاملاتهم بعضهم مع بعض فتسود الرحمة النابعة عن القوة المسيطرة على أى سلوك آخر تجاه إخوانهم .

وفى هذا تذكير للمؤمنين المتلقين للآية الكريمة القارئين لها فى كل وقت ، والمستمعين لها بأن يكون المحور الحقيقى فى تعاملاتهم مع بعضهم البعض الرحمة التى تظلهم جميعاً .

وتأكيداً على هذين المعنيين جاء الجرس الصوتى معبراً عن حقيقتها، وكذا التقييد بالجار والمجرور ، فإن لفظ" أَشِدَّاء" الهمزة والدال صوتان انفجاريان شديدان توسطهما صوت الشين فتفشى [٣]. وكان امتداد الصوت عبر ألف المد لتجعل المتلقى يجوب بذهنه ليتعايش مع تلك الشدة التى هى فى حق الكفار ، والتقيد بالجار والمجرور : " عَلَى الْكُفَّار " يشعر باستعلاء الشدة عليهم بما يوحى بإحاطتها لهم وشمولهم جميعاً شمولاً كلياً ، ففيها قهر وإذلال لهم.

---

(١) لباب البديع أ.د/ محمد حسن شرشر ص ٤٨ .

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٤/ ٢٩٤.

(٣) صوت رخو مهموس متفش يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالقصبة الهوائية فى الحنجرة فلا يؤثر فى الوترين الصوتين بالاهتزاز نظرا لبعدهما عن بعضهما . ينظر دراسات فى التجويد والأصوات اللغوية ص ٩٣.

أما لفظ " رُحَمَاء "فيشعر بالهدوء النفسى من خلال البناء الصوتى لحرف الراء التكرارى ، مع الميم المجهورة ، ويتوسطها حرف الحاء وتجعل ألف المد للمتلقى امتداداً ذهنياً لتصور هذه الرحمة التى قال عنها – ﷺ-.

" مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى من عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى"(١).

"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً" (٢).

وفى التقيد بالجار والمجرور "بينهم" يشعر بالرحمة وقد تخللتهم، وربطت بينهم ، وتشعر بالطمأنينة التى تسودهم .

وجاءت جملة " رُحَمَاء بَيْنَهُمْ " احتراس حسن حتى لا يتوهم أن معاملاتهم تقتصر على الشدة.

ويعمق الله – عز وجل – اتصال المتلقى بآيات الذكر الحكيم اتصالاً روحياً يجعله يتعايش مع الماضى وكأنه مشاهد محسوس له من خلال الفعل المضارع " تَرَاهُمْ " فهو خطاب لغير معين ليشمل كل من تتأتى منه الرؤية ، فهى متكررة مستديمة ، وخص الرؤية بالذكر : لقصد التأكيد بالمشاهدة الحقيقية على أفعالهم وفيه ثناء عليهم ؛ لأن الرؤية " لابد فيها من مشاهدة المرئى بالعين " (٣).

وقوله " رُكَّعًا سُجَّدًا " يظهر ملازمتهم للصلاة ، وحرصهم على آدائها ، وهى من أعظم العبادات .

وعبر عنها بالمجاز مرسل بعلاقة الجزئية وهما الركوع والسجود ؛ لأنهما من أهم أركان الصلاة ، وقد أفاد التضعيف كثرة الركوع والسجود، وهذا مظهر من مظاهر العبادة والإرتباط بالله – عز وجل – لأنهم أيقنوا حقيقة وجودهم كما قال تعالى :"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ "(٤).

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٩ حديث ٢٥٨٦.
(٢) صحيح البخارى كتاب الصلاة ٤٩١/١ حديث ٤٨١ .
(٣) الأشباه والنظائر فى الألفاظ القرآنية للثعالبى ص ١٥٥.
(٤) سورة الذاريات الآية ٥٦.

وتأت جملة " يَبْتَغُونَ فَضْلا مّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا" حيث وضحت مقصدهم ، فهم لا يرغبون فى الدنيا ، وإنما غايتهم ابتداء هى ثواب الله ورضاه .

وجاءت الجملة مفصولة عن سابقتها لشبه كمال الاتصال حيث تضمنت جملة : " رُكَّعًا سُجَّدًا "سؤالاً بفحواها تقديره : ماذا يريدون من حرصهم على الركوع والسجود؟ .

فكانت الإجابة لتكون تعليماً للمتلقين بأن الغاية الحقيقية من عبادة الله هى ابتغاء الثواب والرضا.

وجعلت الجملة الخبرية فى صيغة المضارع ، ليؤكد على أن هذه الغاية متجددة فى كل صلاة يؤديها المرء ، فإنه يستحضر فى نفسه هذه الغاية التى تجعله متعلقاً بربه – عز وجل – .

وبذاك توضح الآية وتبين الغاية الحقيقية من الصلاة .

وفى تنكير " فَضْلا ، رِضْوَانًا " للتعظيم ، فأى ثواب وأى فضل يرجى بعد الله – عز وجل – .

وفيه : حث للإقبال والإجتهاد فى الطاعات ليجمع المرء بين الثواب ورضوان الله – تعالى – .

والذى يظهر أثره فى الدنيا حيث قال : " سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مّنْ أَثَرِ السُّجُودِ " فإن لهم علامات تميزهم فى وجوههم ، والمقصود جباههم ، ولكنه عبر بالكل مجاز مرسل بعلاقة الكلية ، ليجعل الأثر المادى المحسوس للسجود ينتقل من مكانه فى الجبهة ليعبر عن الأثر النفسى ، فالصلاة تجعل نفوسهم تمتلأ بالطمأنينة ، والتى تظهر على وجوههم ، وأن هذا الأثر سيكون ممبزاً لهم يوم القيامة عن غيرهم ، وكل ذلك فيه ترغيب فى الصلاة، وبيان أثرها العميق فى حياة الفرد.

ولمكانة السجود وما فيه من خشوع وتذلل لله ، وقرب العبد من خالقه عبر عن الصلاة بالسجود ، حيث أطلق الجزء وأراد الصلاة ، لأهمية السجود والذى

يكسب المرء القرب ، ولا يستشعر به إلا من يخشع فى صلاته ، التذلل لخالقه فى سجوده ، وهو يستمد من هذا التذلل والخشوع القوة من ربه لملاقاة أعدائه .

ويأت تعريف المسند إليه بالإشارة للبعيد " ذَٰلِكَ " للإشارة ، إلى المذكور من صفات المؤمنين مع استحضارهم باسم الإشارة وبيان لعلو منزلتهم من خلال تنزيل القريب منزلة البعيد .

والمسند " مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ " يسترعى اهتمام المتلقى إلى حقيقة ما سيذكر، فهو وصف عجيب الشأن ، فيجد أن الآية تتحدث عن الإيمان الذى يملأ قلوب المؤمنين ، وما يتميزوا به وقد مهد لهم بأنهم موصوفون بتلك الصفات فى التوراة وكذا فى الإنجيل ، وذكرهما بترتيب نزولهما .

وفى الجملة إيهام يوضحه فى الجملة بعدها ، ليشوق النفوس إلى الوقوف على حقيقتهم ، فإذا هى صورة مألوفة لهم مشاهدة محسوسة ، ونقف على مفرداتها فبدأ بقوله : " كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ " فإن الطرف الثانى فى الصورة التشبيهية يتكون من عدة أجزاء يظهر كل جزء عقب الآخر.

فهذا الزرع وضع بذرة فى الأرض فعبر عنها بالمجاز المرسل باعتبار ما سيكون.

وفى قوله:" أَخْرَجَ شَطْأَهُ "[1] شبه تفرع الفراخ من الحبة بالاخراج لمشابهة التفرع بالخروج ومشابهة الأصل المتفرع عنه بالذى يخرج شيئاً من المكان على سبيل الاستعارة التبعية .

ويدلل على قوة الزرع ، وتماسكه عقب خروجه " فَآزَرَهُ " أى قواه . والأزر القوة الشديدة وتأزر النبات طال وقوى[2].

---

(١) أخرج شطأه : أخرج فراخه يقال قد أشطأ الزرع فهو مُشطِئ إذا فرخ . ينظر مجاز القرآن ٢١٨/٢ .

(٢) تفسير أبى السعود : ٥/ ٦٠٦.

وأعقبه بقوله :" فَاسْتَغْلَظَ "ليبين أن الزرع أصبح شديداً وكان الألف والسين والتاء للمبالغة فى تحقيق الشدة .

وعقب على ذلك بالاستواء على أصله من الأغصان فقال " فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ".

وهذه الصورة يعجب بها المؤمنون أما الكفار فقال " يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ " خص الزراع بالذكر لأنه إذا أعجب به هؤلاء فمن باب أولى أن يعجب به غيرهم، وأشار إلى الكفار ليحقق التوازن والتضاد بين قوله: " أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ " .

وجعل جملة " لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ " علة لما بعده فإن الكفار إذا سمعوا ما اعد للمؤمنين فى الآخرة مع ما لهم فى الدنيا من العزة غاظهم ذلك أشد الغيظ "(١).

"والعرب قد تبدأ بالشىء ثم تجئ ما يكون قبله بعده " (٢).

والمؤازرة والاستغلاظ والاستواء صفات هذا الزرع ، والذى ينتزع منه وجه الشبه بينه وبين المؤمنين ، فهم متجمعون يقوى بعضهم البعض متراحمون " رُحَمَاء بَيْنَهُمْ " وقد التفوا حول الرسول – ﷺ– مؤمنين بالله ورسوله وقد أظهرها لهم الله فى الدنيا حتى قوى الإسلام واستحكم أمره وتغلب على أعدائه .

فقد بدأ المسلمون وقوى بعضهم بعضاً وكثروا حتى استحكم أمرهم وغلبوا أعداءهم.

وهذا مثل ضربه الله – عز وجل – للنبى – ﷺ– إذ خرج وحده ، ثم قواه بأصحابه كما قوى الحبة يما ينبت منها "(٣).

فقد لجأ النظم القرآنى إلى التشبيه التمثيلى " وقد أكثر القرآن من التمثيلات إلى أن بلغت الألف ، لأن فى التمثيل سراً لطيفاً وحكمة عالية، إذ به يصير الوهم

(١) مجاز القرآن : ٢/ ٢١٧.
(٢) تفسير أبى السعود ٥/ ٦٠٦.
(٣) معانى القرآن للفراء ٣/٦٩.

مغلوباً للعقل ، والخيال مجبوراً للانقياد للفكر ، وبه يتحول الغائب حاضراً والمعقول محسوساً ، والمعنى مجسماً ، وبه يجعل المتفرق مجموعاً ، والمختلف متحداً "[١].

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

افتتحت الجملة بما يلفت الانتباه فالمسند "وعد " بصيغة الماضى يفيد التحقق والثبوت ، وجاء الواعد "الله" مسند إليه باسمه الذى يحقق كمال القدرة والتعظيم ، وهذا الوعد يقع على المؤمنين وعرفهم بالموصولية لمدحهم بما فى حيز الصلة الإيمان مع العمل الصالح ، وقد ثبت وتحقق الإيمان واقترن بالعمل الصالح ليكون سلوكهم دليلاً واضحاً على التصديق القلبى.

فالمؤمن معناه المُصدِّق ، لأن الإيمان مأخوذ من الأمانة لأن الله تعالى تولى علم السرائر وجعل ذلك أمانة أُئتمن كل مسلم على تلك الأمانة ، فمن صدَّق بقلبه ما أظهره لسانه فقد أدى الأمانة واستوجب كريم المآب[٢].

"مِنْهُم "من للتبين لا للتبعيض أى الذين آمنوا منهم واتقوا ومثله ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[٣]وكلهم محسن ومتقى"[٤].

وجاء تنكير : "مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا" للتعظيم مع إفادة العموم والشمول.

ويجعل المتلقى يفكر ويتأمل ليقف على هذه المغفرة والأجر العظيم واللذان اقترنا بالإيمان والعمل الصالح .

وجاء فضل الله ورضوانه ليدللاً على أن ختام الآية بهذه المغفرة والأجر العظيم .

وكان فى ختام السورة حسن انتهاء حيث ارتبطت الخاتمة ببداية السورة ، فقد جاء أولها خاصاً بالرسول – ﷺ – ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ .

---

(١) إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز ص ١١٣.
(٢) لسان العرب ٢٠٨٠/٣ ، مادة سلم .
(٣) سورة آل عمران ١٧٢ .
(٤) مغنى اللبيب بحاشية الدسوقى ١/ ٣١٨.

وصرح فى ختامها باسمه معرفاً بالعلمية " مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ "٠

كما تحدث عن المؤمنين : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾.

إن مبعث تلك السكينة فى قلوبهم هى ما وعدهم الله به من المغفرة والأجر العظيم فى ختام السورة الكريمة .

" وجميع خواتيم سور القرآن الكريم فى غاية الحسن ونهاية الكمال لأنها تبين أدعية ووصايا وفرائض وتحميد وتهليل ومواعظ ، ووعد ووعيد إلى غير ذلك من الخواتيم التى لا تبقى للنفوس بعدها تشوف إلى ما يقال"(١).

(١) بديع القرآن لابن أبى الأصبع ص ٢٤٦ وقد حث ابن ألى الأصبع الأدباء على حسن الانتهاء بقوله :
يجب على المتكلم شاعراً كان ، أو ناثرا أن يختم كلامه فى حسن خاتمة فإنها آخر ما يبقى فى الأسماع ، لأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام فى غالب الأحوال فيجب أن يجتهد فى رشاقتها وحلاوتها وجزالتها " .
بديع القرآن ص ٣٤٣ .

الفصل الرابع
من بلاغة البنية المعجمية والصوتية والصرفية فى السورة

ويشمل

المبحث الأول : **بلاغة البنية المعجمية**
المبحث الثانى: **بلاغة البنية الصوتية للفظة وأثرها على نظم السورة**.
المبحث الثالث: **بلاغة البنية الصرفية للفظة " فن التصريف**".

المبحث الأول

من بلاغة البنية المعجمية للفظة المتغيرة فى التركيبين المتماثلين فى السياق

إن الترادف بمعناه وهو الاتحاد فى المفهوم ، أو توالى الألفاظ المفردة الدالة على شىء واحد باعتبار واحد [١]. لا بوجد فى القرآن الكريم ، فالمتأمل فى كتاب الله – عز وجل – الذى هو قمة الإعجاز لا يجد فيه ترادفاً ، لأن كل لفظة فى القرآن الكريم استعملت استعمالاً دقيقاً ، فالكلمات ليست على حد واحد فى أداء المعانى المرادة منها ، بل هى تختلف فيما بينها فصاحة ودقة فحين ينظر المرء فى الألفاظ المتقاربة فى أداء المعانى يظن أو يتوهم أنها مترادفة ، ولكن لكل لفظ سماته المتميزة والفارقة"[٢].

وقد حث القرآن الكريم فى آياته إلى ضرورة الدقة فى استعمال الألفاظ المناسبة .

قال تعالى : ﴿قَالَتِ الاعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الايمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣].

فلغة القرآن فى كل شأن تتناوله من شئون القول تستعمل أشرف المواد وأمسها رحماً بالمعنى المراد"[٤].

وقد تحدثت فى ثنايا السورة الكريمة عن تلك الظاهرة الأسلوبية والتى أطلق عليها البلاغيون ائتلاف اللفظ مع المعنى [٥]، ولكن فى هذا المقام سأورد ألفاظا تغيرت فى التراكيب المتماثلة فى سياق السورة وهومن أوجه الإعجاز البلاغى .

---

(١) التعريفات للجرجانى تحقيق عبد الرحمن عميره ص ٨٣ .
(٢) ينظر: الصاحبى لأحمد بن قارس ص ١١٤ ، والمزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى ٤٠٢/٢ بتصرف .
(٣) سورة الحجرات آية ١٤.
(٤) النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز ص ٦٧.
(٥) منهم العلوى فى الطراز ٣/ ٨٠.

*** ومنها لفظى عليماً وعزيزاً** :

فقد ختم قوله تعالى بلفظ عليماً : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١).

وجاء نفس التركيب البنائى مختوماً بلفظ عزيزاً ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٢).

فالآية الأولى جاءت فى سياق التبشير بالفتح المبين(٣) بعد عام الحديبية فناسب لأن يذكر علمه – تعالى – بأحوال خلقه وحكمته فى تقديره وتدبيره .

أما الآية الثانية فقد جاءت فى سياق عذاب المنافقين والمشركين(٤). فناسب أن يذكر لفظ العزة وهو بمعنى القوة والشدة .

ومنها لفظى خبيراً بصيراً .

فى قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (٥).

ختمت الآية بقوله : " بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ".وفى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٦).

---

(١) سورة الفتح آية : ٤.
(٢) سورة الفتح آية : ٧.
(٣) من قوله تعالى : " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا " إلى أن قال تعالى : " هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ".
(٤) فى سياق قوله تعالى : " وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ".
(٥) سورة الفتح آية : ٢.
(٦) فى سياق قوله تعالى : " وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ".

ختمت بقوله تعالى : " وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا

الخبير من أسماء الله – عز وجل – العالم بما كان وما يكون ، وخبرت بالأمر أى علمته ، وخبرت الأمر خبره إذا عرفته على حقيقته: (١).

فالآية الأولى تتحدث عن بواطن الأمور وما أسره المخلفون من الأعراب فى باطنهم من أعذار غير حقيقية ، وهى انشغالهم بالمال والأهل، وطلبهم الاستغفار ، وقد فضحهم الله بقوله : " يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ "فناسب ذلك أن يكون الختام بالخبرة التى هى المعرفة ببواطن الأمور.

أما ختام الآية الثانية بقوله " بَصِيرًا " فقد جاءت فى الحديث عن قتال الكافرين وتوليهم أمام المسلمين وهذا أمر ظاهرى ، لذا ناسب التعبير بالدلالة الظاهرية " فالبصير فى أسماء الله تعالى هو الذى يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها بغير جارحة ، والبصير عبارة فى حقه عن الصفة التى ينكشف بها كمال نعوت المبصرات(٢).

لقد جاءت الكلمة فى موضعها المناسب لها ، متمكنة فى مكانها ، ومستقرة فى قرارها ، ولو طرحت لاختل المعنى ، واستغلق البيان .

"وصاحب الذوق السليم إذا تأمل أساليب التمكين فى القرآن الكريم، أدرك أنها بلغت الغاية فى الإبداع والنهاية فى الإعجاز ، لما فيها من الدقائق والعجائب التى يعجز عن إدراك شأوها فرسان البلاغة ، وأساطين البيان"(٣).

---

(١) لسان العرب : ٢/ ١٠٩٠ مادة خبر.
(٢) لسان العرب : ١/ ٢٩٠ مادة بصر .
(٣) من أسرار البلاغة فى القرآن ص ١٦١.

المبحث الثانى

البنية الصوتية للفظة الفاصلة وأثرها على النظم فى السورة .

تحدثت فى ثنايا السورة الكريمة عن بلاغة البنية الصوتية للألفاظ فى موضعها ، ولكن فى هذا الموضع خصصت الحديث عن لفظة الفاصلة ؛ لأنها وجوه من أوجه إعجاز النظم القرآنى .

تتميز فواصل القرآن الكريم بالتسكين ، فلا تظهر الحركات الإعرابية على أواخر الكلمات.

وقد أوضح الزركشى هذا بقوله : " إن مبنى الفواصل على الوقف ، ولهذا شاع مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس وكذا المفتوح والمنصوب غير المنون"(١).

وفى السورة الكريمة نجد لها تميزها فى الوقوف على فاصلتها حيث ألف المد التى تعطى امتداد صوتياً عند الوقف ، لأن موضوعها متميز ، لذا جاء إيقاعها الصوتى يشعر بذلك " وقد كثر فى القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون ، وحكمته وجود التمكن مع التطريب بذلك"(٢).

والألف من أصوات المد والتى تتميز بالوضوح السمعى " فعند إنتاج صوتى الواو والياء يحدث تضييق فى مخرجيهما أقل من التضييق الذى يحدث أثناء انتاج الصوامت الأخرى ، وأكثر من التضييق الذى يحدث أثناء انتاج الحركات ، ولهذا تصل إلى الأسماع مؤثرة فيها تأثيراً تلقائياً فى الوضوح والصفاء ، وعلة ذلك انبساطها مسترسلة دون تضييق المخارج "(٣).

" ولا يقل صوت الألف ايقاعاً عن صوتى الواو والياء ، لكنه يزيد إيقاعاً عن صوتى الواو والياء ؛ لأنها تملك قيمة تنغيمية أكثر منهما ، فهى ممدودة ومخرجها من أقصى الحلق ، فقد تحتاج إلى ضعفى زمن الحرف الصحيح الساكن"(٤).

---

(١) البرهان ١/ ٦٩.
(٢) السابق ١/ ٦٨ .
(٣) الصوت اللغوى فى القرآن ص ١٨٢.
(٤) قواعد تشكيل النغم فى موسيقى العربية ص ١٣٩ بتصرف .

إن إيقاع صوت الألف الممدودة فى السورة له تأثير فى الوجدان يجعل المتلقى يهتز لتلك المعانى ، ومع تكرار وتتابع هذا الإيقاع تسر به النفس ، ويجعلها أكثر تجاوباً مع المراد " فالمدود فى الفواصل وهى نهايات الفقرات الصوتية للجمل عند الوقف ، نجد لها فى القرآن الكريم من الحلاوة والطلاوة حظاً يثير الحكم أن لها دخلاً كبيراً فى الإعجاز ، وقد يتكرر فى كل فاصلة ،فيضاعف التكرير قيمتها بما لا يخفى جماله وسر إيقاعه "(١).

وقد تكررت الفاصلة فى جميع آيات السورة ، وهذا له مدخل كبير فى إعجاز نظمها وهو مرتبط بموضوعها وهو التبشير بالفتح المبين بعد مرجعه – ﷺ– من الحديبية ، وإظهار موقف الأعراب من الجهاد فى سبيل الله ، وإظهار حكمته تعالى من صلح الحديبية ، إنها تتعلق بالمؤمنين الذى صبروا على شروط صلح الحديبية ، وكان من منطلقه الفتح المبين ، إن أسلوبها مبنى على التصوير القصصى الذىحتاج نغماته إلى وضوح سمعى ينبئ عن التناسق الصوتى ، ليظل المتلقى متابعاً لأحداثها فى تشوق ، فإذا انتهى منها تمكن المعنى المراد فى نفسه .

" إن تكرار النغم تألفه الأذن لتسر به النفس ، وهذه طبيعة النفس فى إدراكها عن طريق جوانبها المختلفة "(٢).

* ومن إعجاز نظم القرآن فى سورة تكرار كلمة الفاصلة ظاهرة إيقاعية مائزة فى القرآن الكريم(٣).

وجاء التكرار التتابعى لكلمة الفاصلة فى السورة فى آياتين متتابعتين . قال تعالى: ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾(٤).

وختمت بقوله : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

---

(١) التكرير بين المثير والتأثير ص ٦٤ .
(٢) النقد الأدبى الحديث ص ٤٢٦ .
(٣) " التكرار الذى وقع فى سورة البقرة ، فقد تكررت فاصلة يعلمون وتعلمون فى واحد وعشرين موضعاً ، وفاصلة المتقون فى اثنى عشر موضعاً ، وعليم فى ثمانية عشر موضعاً، وغيرها من الكلمات " ظواهر أسلوبية فى القرآن الكريم ص ٣٦٦ .
(٤) سورة الفتح آية : ١٦ .

وقوله تعالى : ﴿لَيسَ عَلَى الاعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ . . ﴾ [١].وختمت بقوله : ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

ولم يقف الإعجاز على تكرار الفاصلة ، وإنما جاء التكرار للبناء التركيبى لجملة الفاصلة ، حيث تكرار التولى مع كلمة العذاب مؤكدا بمادة العذاب مرة أخرى، يشعر المتلقى بالرهبة والخوف ، ويكاد يتعسر لسانه من النطق بنهاية جملة الفاصلة ، إذ وجد كلمة الفاصلة "أليماً" تبدأ بالهمزة " وهى من أعسر الأصوات نطقاً إذ يحتاج الناطق إلى جهد عضلى لنطقها ؛ لأن آلاية نطقها تقتضى انطباق الوترين الصوتيين وحبس الهواء الصادر من الرئة فى القصبة الهوائية"[٢].

فالإيقاع التكرارى يشير إلى قيم دلالية ، وأبعاد نفسية ، إن وجدان المتلقى يذوب مع تلك المعانى التى يستلهمها من كل حرف ينطق به من كلمات وجمل القرآن الكريم التى تفيض إعجازاً تنحنى أمام عظمته أساطين البيان وتسجد له البلاغة فى أسمى معانيها.

لقد جاءت كلمة الفاصلة " أليماً" مكررة فى قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[٣].لتحيل المتلقى إلى الآيات السابقة والمنتهية بنفس كلمة الفاصلة ، لتعقد المفارقة بين الحديث عن الأعراب ، والحديث عن الكافرين ، فقد جاء لفظ التعذيب موضحاً فيه المعذب " الَّذِينَ كَفَرُوا " مبالغة فى تعذيبهم.

إن القرآن الكريم يمزج بين العناصر الثلاثة " وهى العنصر اللغوى الذى يشكل البنية اللغوية للنص، والعنصر النفعى وهو مجموعة الإحالات خارج النص، والعنصر الجمالى وهو تأثير النص على القارئ"[٤].

---

(١) سورة الفتح آية : ١٧.
(٢) الأصوات اللغوية : ص ١٥٨.
(٣) سورة الفتح آية : ٢٥.
(٤) علم الأسلوب . صلاح فضل ص ١١٦ .

وهذا كله ينبع من توازن حروفه وإئتلاف مخارجها وتناسب أصواتها، فالحرف له إعجازه فى موضعه ، لأنه بداية الإعجاز الكلمة التى تضفى على الآية إعجازها، ليكون السر فى إعجاز نظمه كاملاً .

"فالحرف الواحد من القرآن معجز فى موضعه ؛ لأنه يمسك الكلمة التى هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة ، وهذا هو السر فى إعجاز جملته إعجازا أبدياً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية ، وفوق ما يتسبب إليه الإنسان إذ هو يشبه الخلق الحى تمام المشابهة ، وما أنزله إلا الذى يعلم السر فى السماوات والأرض"(١).

– إن ختام كلمة الفاصلة فى السورة الكريمة "عظيماً" تكررت فى الآية الخامسة ، والعاشرة من السورة وكان تكرار حرف الميم من أكثر الحروف تكراراً فى كلمة الفاصلة فى السورة ، فقد تكرر فى ثلاث عشرة آية ، فصوت الميم أوجد إيقاعاً صوتياً يتمثل فى الغنة يضاف إلى الإيقاع الرئيسى وهو امتداد الصوت مع حرف الألف ، فقد شكل هذا الحرف إيقاعاً ساند إيقاع الفاصلة ، لأن الغنة نغم شجى تعشقه الأذن وتلذه النفس ، كما أن صفة الجهر للميم أكسبته سهولة فى النطق لأن" الأصوات المجهورة تحتاج إلى هواء أقل مما تحتاجه نظاهرها المهموسة فالأصوات المجهورة أسهل نطقاً من الأصوات المهموسة "(٢).

كما برز فى السورة الكريمة الإيقاع التوافقى ، فقد وقع التجانس اللفظى فى قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ [آية ٢٢ من سورة الفتح].

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [آية ٢٤ من سورة الفتح].

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٧٠.
(٢) موسيقى الشعر ص ٣٢.

فقد كانت كلمة الفاصلة فى الآيتين "نصير ، بصيرا" وقد وقع التجانس اللفظى فى اللفظ الرباعى وفى صيغة المبالغة ، فيهما جناس ناقص ، وشكل اللفظان بهذه الهيئة تأثيراً فى مستوى الإيقاع الصوتى الذى يحدث تأثيراً فى النفس يلفتها إلى المراد فالكافرون لا يجدون وليا ولا نصيرا ، ففيها قوة فى أداء المعنى ، أما فى جانب المؤمنين فكان الرفق واللطف وأن الله بصيراً ما تعملون .

لقد غلب على السورة الكريمة الإيقاع الصرفى للفواصل المختلفة حيث الاختلاف فى الوزن ، ولكنها اشتركت فى الملمح الصوتى ، فقد جمعهاصوت الجهر .

الحرف	مخرجه	صفته	عدده فى السورة
النون	لثوى	الجهر	مرة واحدة فى بداية السورة آية رقم(١)
الزاى	لثوى أسنانى	الجهر	مرة واحدة فى الآية رقم (٣) .
اللام	لثوى	الجهر	ثلاث مرات الآيات ٩ ، ١٥، ٢٣
الدال	لثوى أسنانى	الجهر	مرة واحدة فى الآية (٢٨).
الباء	شفوى	الجهر	مرتان الآيتان ١٨ ، ٢٧.
الميم	لثوى	الجهر	فى ثلاث عشرة موضعاً الآيات ٢ ، ٤، ٥، ٧، ١٠، ١٤، ١٦، ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٥، ٢٦ ، ٢٩.
الراء	لثوى	الجهر	فى ثمانية مواضع الآيات ٦ ، ٨ ، ١١، ١٢، ١٣، ٢١، ٢٢، ٢٤.

فقد جمع بينهم صفة الجهر ، وهو حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت "[١].

فالصوت المجهور أكثر تناسباً فى السورة الكريمة فهو يوفر للفواصل المختلفة وضوحاً سمعياً ، وسهولة فى النطق .

ولاشك أن تقارب مخارج الفواصل يختلف اختلافاً تاماً عن تقارب مخارج الكلمة الواحدة .

---

(١) الأصوات اللغوية ص ١١٦ .

وهو ما أشار إليه ابن جنى " واعلم أن هذه الحروف كلما تباعدت فى التأليف كانت أحسن"(١).

فالقرآن الكريم له مسحة خلابة عجيبة تتجلى من نظامه الصوتى ، وجماله اللغوى ، ونريد بنظام القرآن الصوتى : اتساق القرآن وائتلافه فى حركاته وسكناته ، ومداته وغناته ، واتصالاته وسكناته ، اتساقاً عجيباً ، وائتلافاً رائعاً ، يسترعى الأسماع ، ويستهوى النفوس ، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أى كلام آخر من منظوم ومنثور "(٢).

***

(١) سر صناعة الإعراب ١/ ٦٥.
(٢) مناهل العرفان للزرقانى ٢/٢٨٠ (طبعة مصر سنة ١٣٧٢هـ) .

المبحث الثالث

من بلاغة البنية الصرفية

قال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١).

فى ثنايا الآية الكريمة فن من الفنون البلاغية وهو ما يعرف بالتصريف(٢) : فى قوله (سجداء ، السجود) ، (زرع ، (الزراع) وهو من النوع الأول عند الرمانى.

وقد أكد من خلال تنوع البنية الصرفية فى الآية الكريمة على منزلة المؤمنين عند ربهم وهم يستحقونها ،أ لأن غايتهم هى عبادة الله – عز وجل – وأكد على تلك المنزلة من خلال الصورة التشبيهية مستخدماً البنية الصرفية وتنوعها ليدلل على أنهم جند من جنود الله ، قوى بهم الدين كما تقوى الحبة بما نبت فيها ، وهى صورة مستقاة من الزرع المتعارف لدى المختصين به وهم الزراع لأنهم إذا أعجبوا به فمن باب لأولى أن يعجب به غيرهم.

كما يظهر النوع الثانى فى دلالة السورة فى الحديث عن إنزال السكينة فى قلوب المؤمنين حيث قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة الفتح آية : ٤] .

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٩ .

(٢) عرفه الرمانى (ت ٣٨٤ هـ) بقوله : " تصريف المعنى فى المعانى المختلفة كتعريفه فى الدلالات المختلفة ، وهو عقدها على جهة التعاقب ، النكت ص ٩٣.

فقد جعله قسمين تصريف فى المعانى المختلفة ، كتصريف الملك فى معانى الصفات . مالك ، ملك وذى الملكوت ، والمليك .

وتصريف المعنى فى الدلالات كمجئ القصة الواحدة فى القرآن الكريم . النكت ص ٩٣ (بتصرف) .

وسار على نهج الرمانى ابن أبى الإصبع (ت ٦٥٤) فى كتابيه : بديع القرآن ص ٢١٩، وتحرير التحبير ص ٥٨٢ .

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [سورة الفتح آية : ١٨] .

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الفتح آية : ٢٦] .

فقد تنوعت طرائق العرض فى ثنايا السورة .

وفى حديثه عن المبايعة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الفتح آية :١٠٤] .

وقوله : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [سورة الفتح آية: ١٨] .

وهو باب من الأبواب الجديدة التى أضافها الرمانى إلى بلاغة القرآن (١) .

وجعل الرمانى فائدة هذا الفن أنه يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعانى تظهره وتدل عليه " (٢) .

فجعل الله – عز وجل – المعنى واضحاً فى الآية الكريمة لوجود ألفاظ متشابهة ، وهو بذلك يرسخ فى الأذهان تلك الخاتمة التى وضح فيها مكانة الرسول – ﷺ– وصحابته الكرام .

" وقد كان الدافع للرمانى إلى ابتكار فن التصريف وجعله ضمن فنون البلاغة : ليثبت إعجاز القرآن الكريم عن طريق التصريف ، وذلك أن القصة الواحدة قد أعيدت فى مواضع متعددة بقوالب مختلفة ، ليظهر للعرب أنهم عاجزون عن الإتيان بمثلها رغم أنها

(١) أثر القرآن فى تطور النقد العربى ص ٢٣٦.
(٢) النكت ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز ص ٩٣.

سهلة سلسة فى كل موضع جاءت فيه ، ومع هذه السهولة والبلاغة تقطعت الرقاب عن الإتيان بمثلها" [١] .

إن هذا الفن موجود فى السورة الكريمة ليؤكد على إعجاز نظم القرآن الكريم، ويبعث المتلقى على الفكر ، وإثارة انتباهه ليقع على المراد من النظم الذى وضع فيه كل لفظ فى موضعه اللائق ، ومحله المناسب .

❁❁❁

(١) نشأة الفنون البلاغية ص ٢٣٤.

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الهادى الأمين ، ناظم حبل الحق بعد انقضابه ، وجامع شمل الدين بعد انشعابه ، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد

فهذا البحث قليل من فيض بلاغة القرآن الكريم ، وما هو إلا ومضة من نور ربانى تنير الكون وتكون هداية وبرهانا لهذه الأمة التى تحتاج إلى مثل هذه الدراسات القرآنية التى تعمل على اجتلاء ما ينطوى عليه القرآن الكريم من أسرار ولطائف تظهر عظمته وإعجازه .

وقد كتبت فيه قدر طاقتى وجهدى عسى الله أن ينفع به عقولاً وقلوباً تهفو إلى ضياء القرآن الكريم .

ومن خلال البحث كانت أهم النتائج :

١- إن حياة الرسول - ﷺ- وصحابته فى المدينة لم تكن سهلة وهادئة ، وإنما حياة ملؤها الكفاح والتضحية ، وتجربة عميقة يستفيد منها المسلمون فى كل زمان ومكان ، فلابد للأمة الإسلامية حتى ترقى أن يتصل حاضرها بماضيها يستمد منه القوة على مجابهة الصعاب خاصة فى ظل التطورات العالمية المعاصرة .

٢- إن صلح الحديبية هو رأس الفتوح كلها ، إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه .

٣- ارتبطت سورة الفتح بسابقتها سورة محمد وتسمى سورة القتال، والفتح بمعنى النصر مرتب على القتال ، وقد جاء نظم السورتين يؤكد ذلك الترابط فى إتقان وإحكام وجودة سبك وقوة تأثير ، كما ارتبطت بما بعدها سورة الحجرات ، لتظهر سراً من أسرار القرآن الكريم العجيب فى تناسب سوره .

٤- امتازت السورة بانتقاء الألفاظ التى تتلاءم مع المعنى المراد ، وجاءت البنية المعجمة دليلاً مؤكداً على ذلك من خلال استعمال اللفظة المتغيرة فى التركيبين المتماثلين ، فكل كلمة استعملت استعمالاً دقيقاً ، ووضعت مكانها الذى خلق لها ، لتؤدى المعنى الذى خلقت له .

فظاهرة الترادف اللغوى تكاد تكون معدومة فى لغة القرآن لأن كل لفظ قرآنى له خاصية فريدة.

٥- مثلت البنية الصوتية للفظة بلاغة مؤثرة في التعبير القرآنى للسورة الكريمة.

٦- ارتكزت السورة على الأسلوب الخبرى ، وهو مناسب لموضوع السورة حيث تقرير وتأكيد الحقائق الثابتة ، وإبراز نتائجها وآثارها.

٧- برز أسلوب القصر عن طريق التقديم الذى يحقق الإيجاز فهو يعمل على توصيل المعانى إلى المتلقى بأسرع ما يمكن ، ويجعله مشاركاً له فى الموضوع منجذباً إلى المعنى.

٨- من الفنون البلاغية الفصل والوصل ، وهو يتسم بكثرة فوائدة، ودقة مسلكه، وعظم خطره ، لذا تجد السورة الكريمة لا تخلو منه آية ، وهو ما ينبئ عن أهمية موضوع السورة .

٩- ظهر الإيجاز فى السورة من أول آية حتى نهايتها فهو باب لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ..." [١] ومع ذلك كان للإطناب بلاغته فى السورة الكريمة ، والمقام هو الذى يستدعى أحدهما دون الآخر، فإذا استدعى المقام الإسراع إلى المطلوب بأوجز طريق كان الإيجاز، كما يجسد الإطناب فى أساليب بلاغية رائعة تعبر عن المطلوب أتم تعبير .

١٠- كان للإلتفات بلاغته وهو يسمى "شجاعة العربية" .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٤٦ .

وجاء محققاً عمقاً وجدانياً ونفسياً عند هؤلاء المخلفين من الأعراب، والذين تخلفوا عن دعوة الرسول – ﷺ– لهم بالخروج ، فكان التعريض بهم من خلال النظم الذى يعرفون بلاغته ، وينبئ عن شجاعتهم فى استعمالهم اللغوى، فهو دليل على حدة ذهن البليغ ، وتمكنه من تصريف الأساليب كيف يشاء، فكيف بهؤلاء المخلفين الذين خافوا الضرر من الجهاد والأسر، فهذا يخالف ما طبعوا عليه من قوة البلاغة والبيان ،وقد تحقق الالتفات بصوره المتعددة ومنه قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الاعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الآية ١١ من سورة الفتح].

١١- نقلت السورة الحقائق الماضية، والمواقف الغابرة إلى مشهد واقعى محسوس، وكأننا نعيش فيه ونشاهده بأعيننا من خلال البناء التركيبى والذى ارتكز على الفعل المضارع ، وكذا التصوير البيانى عن طريق الصور الموحية والمعبرة ، وجاءت كل صورة من صوره فى موضعها المناسب الذى يكون أكثر دلالة فى إيضاح المعنى ، وتكسب المضمون قوة التأثير والإقناع ، وقد تنوعت طرائقه فلم يرتكز على التشبيه والمجاز ، والكناية، وإنما جاء التصوير عن طريق الموازنة والمقابلة ، والتصوير بالتناغم الصوتى الذى يؤثر فى النفوس ، وأدى ذلك إلى تداخل وتشابك وسائل التصوير التى تحوج المتلقى إلى التدبر والتفكر العميق للوصول إلى حقيقة المراد ، ويجعله يتعايش تلك الحقائق معايشة حقيقية ليتحقق ما ذكره صاحب الكشاف " من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد فتح مكة".

١٢- جاءت الألوان البديعية فى السورة لتخدم المعنى وقد امتزجت بالتصوير بأنواعه المختلفة ،ليكون لها الأثر البالغ فى إكساب المعنى بعداً أعمق وكانت فى موضعها فى السورة معجزة ، لأنها من جملة نظم القرآن الكريم الذى أعجز الإنس والجان .

١٣- جمعت السورة بين الترهيب والترغيب ، وهو بذلك يُقوم سلوك المرء فى الحياة، ويعطينا نموذجاً واضحاً فى التربية الصحيحة من خلال منهج قرآنى، فلا يجعل المرء منحصراً تفكيره فى العذاب واليأس من رحمة الله ، ولا مستغرقاً فى الرحمة مندفعاً نحو التواكل ، غافلاً عن الطاعات، بل يمزج المغفرة والعذاب ، ليبث فى النفوس خيطى الخوف والرجاء ، ومن يرد أن يتعرف على هذا الأمر فليتابع قراءة السورة من أولها إلى آخرها قراءة تدبر وتفكر للوقوف على تلك الحقيقة.

١٤- أبرزت السورة أهمية القلوب ، فتحدثت عنها فى أكثر من موضع باعتبارها مناط الهدى ، ومرآة لإدراك مقومات الاعتقاد ، وكان هذا استكمالا لما ذكر فى سورة محمد ، وإظهارا للمفارقة والإختلاف بين ما ذكر فى السورتين .

ومنه قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[1] فهنا مدح وثناء للمؤمنين .

بينما فى سورة محمد قال تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾[2].ذم لأصحاب القلوب التى خرج أصحابها عن الطريق المستقيم .

١٥- جاء ختام السورة ختاماً قوياً مرتبطا بفاتحتها ، فكان الإعجاز فى حسن الابتداء ممزوجاً بحسن الانتهاء يتوسطهما حسن التخلص بين موضوعات السورة ، وهذا هو الإعجاز الفائق الذى تنحنى أمام عظمته جباه أساطين البيان ، وتسجد له البلاغة فى أسمى معانيها .

وختاما ... أسأل الله – عز وجل – التوفيق وأن أكون قد وفقت فيما ذكرت فى بداية البحث من أن الاستفادة الحقة من كتاب الله تكون بمداومة الصلة به علماً وعملاً ، تلاوة وتدبراً ، وإن معاودة التأمل والتدبر فى الدراسات القرآنية المتعلقة بأسرار الإعجاز القرآنى تعد فتحاً جديداً فقد حاولت التدبر والتعمق فى آيات

(١) سورة الفتح آية ٥.
(٢) سورة محمد آية ٢٩.

السورة لاستخراج ما فيها من نظم بلاغى معجز فى الحروف والكلمات والجمل ، والتى اتصفت كلها بالإتقان والإحكام وجودة السبك وقوة التأثير.

" إن نظم القرآن الكريم يقتضى كل ما فيه اقتضاء طبيعياً بحيث يبنى هو عليها؛ لأنها فى أصل تركيبه ، ولا تبنى عليه ... فالحرف الواحد من القرآن معجز فى موضعه ؛ لأنه يمسك الكلمة التى هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة ، وهذا هو السر فى إعجاز جملته إعجازاً أبدياً"(١).

أما التوصيات فإننى أوصى أن يرتبط الدرس البلاغى بالقرآن الكريم.

وأدعو الباحثين إلى تجاوز استخراج الفنون البلاغية من النص القرآنى إلى التعمق والتدبر فى البنية المعجمية والصرفية والصوتية للفظة والتى تكشف عن تناغم الحروف مع الألفاظ فى نظم الجمل ، فلابد من الربط والتحليل والاستنتاج لاجتلاء ما ينطوى عليه القرآن الكريم من أسرار ولطائف تظهر عظمة إعجازه .

وفى ختام البحث أسأل الله–عز وجل – التوفيق والسداد ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

د / فاطمة عبدالرسول السيد شحاته

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢١٠.

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الإتقان فى علوم القرآن ، للسيوطى تحقيق محمد أبو الفضل (طبعة دار التراث القاهرة – الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م).
- أثر القرآن فى تطور النقد العربى إلى آخر القرن الرابع د/ محمد زغلول سلام (طبعة دار المعارف – القاهرة – الطبعة الثالثة).
- أثر النحاة فى البحث البلاغى أ.د/ عبد القادر حسين (طبعة دار قطرى بن الفجاءة – الدوحة – قطر ١٩٨٦م) .
- أساس البلاغة : للزمخشرى ت ٥٣٨ هـ (طبعة دار الفكر – بيروت – ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م) .
- أسباب النزول للنيسابورى الشافعى ت ٤٦٨ هـ تحقيق أيمن صالح شعبان (طبعة دار الحديث – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٤١٥ هـ – ١٩٥٩م) .
- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى ، ٤٧١ هـ وقيل ٤٧٤هـ تحقيق محمود شاكر الطبعة الثالثة – ١٤١٢ هـ – ١٩٩١م .
- أسرار ترتيب القرآن عبد الرحمن بن أبى بكر محمد السيوطى تحقيق عبد القادر أحمد عطا (دار الاعتصام) .
- أسرار التكرار فى القرآن تأليف محمد بن حمزة الكرمانى تحقيق عبد القادر أحمد عطا (الطبعة الأولى – دار الاعتصام).
- إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز بديع الزمان النورسي (سوذلر للنشر – القاهرة – الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م) .
- الإشارات والتنبيهات تأليف محمد بن على بن محمد الجرجانى ت ٧٢٩ هـ تحقيق أ.د/ عبد القادر حسين (طبعة دار نهضة مصر – ١٩٨١م).
- الأشباه والنظائر فى الألفاظ القرىنية للثعالبى تحقيق محمد المصرى (مطبعة سعد الدين – الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م) .

– الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس (طبعة مكتبة الأنجلو – الطبعة السادسة ١٩٨٤م) .
– أضواء على متشابهات القرآن تأليف خليل ياسين (مطبعة مكتبة الهلال الطبعة الثانية ١٩٨٠م).
– الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق د/ عائشة بنت الشاطئ (طبعة دار المعارف ١٣٩٧عـ – ١٩٧٧م الطبعة الخامسة).
– الإعجاز فى نظم القرآن أ.د/ محمود شيخون .
– إعجاز القرآن لأبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى ت ٤٠٣ هـ وقيل ٤٠٤ هـ تحقيق السيد أحمد صقر طيبة دار المعارف ١٩٦٣م).
– إعجاز القرآن والبلاغة النبوية تأليف مصطفى صادق الرافعى (طبعة دار الفكر الطبعة الثامنة).
– إعراب القرآن وبيانه محيى الدين درويش (طبعة دار الإرشاد – سوريا ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م).
– الإيضاح للخطيب القزوينى تحقيق أ.د/ فتحى عبد القادر فريد ، أ.د/ فتحى عبد الرحمن حجازى .
– الإيضاح للخطيب القزوينى أ.د/عبد القادر حسين (الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م).
– البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى الغرناطى (الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م – دار الفكر).
– بدائع الفوائد الإمام عبد الله بن أبى بكر الدمشقى المشتهر بابن قيم الجوزية ت ٧٥١ هـ (طبعة دار الكتاب العربى – بيروت) .
– البداية والنهاية لابن كثير ، ٧٧٤ هـ تحقيق د/ محمد أبو ملحم د/ على نجيب (طبعة دار الكتب العلمية – الثالثة ١٩٨٧م .
– بديع القرآن ابن أبى الأصبع ت ٦٥٤ هـ تحقيق د/ حفنى محمد شرف (الطبعة الثانية – دار نهضة مصر).

-البرهان فى علوم القرآن – تأليف بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى، ٧٩٤ هـ- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (المكتبة العصرية بيروت – ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م – الطبعة الثانية) .

– بصائر ذوى التميز فى لطائف الكتاب العزيز تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادى ت ٨١٧ هـ (طبعة المكتبة العلمية – بيروت – لبنان).

– بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علم اللغة تأليف د/ عبد المتعال الصعيدى (مكتبة الآداب – ١٤١١ هـ – ١٩٩٠م – الطبعة السابعة).

– البلاغة العربية فى ثوبها الجديد – علم البديع أ.د/ بكرى شيخ أمين (الطبعة الأولى- دار العلم للملايين).

– البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى أ.د/ محمد أبو موسى (طبعة دار الثقافة – ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م – الطبعة الثانية) .

– بلاغة القصر دراسة نقدية تحليلية أ.د/ عبد العزيز أبو سريع يس (الطبعة الأولى – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م مطبعة السعادة).

– البلاغة الواضحة تأليف على الجارم ومصطفى أمين . (مكتبة الآداب ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢م).

– البيان فى ضوء أساليب القرآن أ.د/ عبد الفتاح لاشين (دار المعارف – الطبعة الثانية ١٩٨٥م) .

– البيان والتبيين تأليف عمر بن بحر محبوب أبو عثمان الجاحظ ، ٢٥٥ هـ – ١٩٨٥م الطلعة الخامسة).

-التبيان فى إعراب القرآن تأليف أبى البقاء العكبرى ت ٦١٦ هـ – (مكتبة الدعوة – القاهرة – الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م).

– تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر لأبى الأصبع المصرى ت ٦٥٤ هـ – طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية).

– تسهيل نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للفخر الدين الرازى ت ٦٠٦ هـ تحقيق أ.د/ عبد القادر حسين – (طبعة دار الأوزاعى – بيروت – لبنان ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩م).

– التصوير الفنى فى الحديث النبوى تأليف د/ محمد الصباغ (المكتبة الإسلامية – ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨م الطبعة الأولى).
– التصوير الفنى فى القرآن تأليف الشيخ سيد قطب (طبعة دار المعارف الطبعة العاشرة).
– التعريفات تأليف الشريف الجرجانى ت ٧٢٦ هـ (دار الكتب العلمية ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م الطبعة الثانية).
– تفسير أبى السعود المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبى السعود بن محمد العماوى ت ٩٥١ هـ – طبعة أحياء التراث).
– التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم تأليف أ.د/ عبد العظيم المطعنى (مكتبة وهبة ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م الطبعة الأولى) .
– تفسير التحرير والتنوير تأليف محمد الطاهر بن عاشور (طبعة الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م).
– تفسير روح المعانى لأبى الفضل شهاب الدين محمود الألوسى البغدادى ت ١٢٧٠ هـ – (طبعة إحياء التراث العربى الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ–١٩٨٥م).
– تفسبر القرآن العظيم لابن كثير .(دار التراث ٠ القاهره ١٤٠٠هـ
– التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى ت ٦٠٤ هـ (الطبعة الأولى – دار الكتب – بيروت).
– تفسير الكشاف للإمام جار الله الزمخشرى ت ٥٣٨ هـ . طبعة دار المصحف – ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧م – الطبعة الثانية) .
– تفسير المنار محمد رشيد رضا .
– التكرير بين المثير والتأثير تأليف عز الدين على السيد (الطباعة المحمدية بالأزهر – الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م) .
– تهذيب اللغة لأبى منصور الأزهرى ت ٣٧٠ هـ – تحقيق عبد السلام هارون (طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف).
– التوجيه اللغوى لمشكل القرآن الكريم د/ مجدى محمد حسين (مؤسسة حورس الدولية).

– ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الكريم (الخطابى – الرمانى – عبد القاهر الجرجانى – طبعة دار المعارف).
– الجامع لأحكام القرآن لأبى بركات محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ت ٦٧١ هـ – (طبعة دار التراث ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م الطبعة الثالثة).
– جامع البيان فى تفسير القرآن – محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ (طبعة دار المعرفة ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م).
– الجر علم الأسماء أ.د/ عبد النعيم على محمد (الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩م).
– الجنى الدانى فى حروف المعانى لابن قاسم المرادى ت ٧٤٩ هـ تحقيق فخر الدين قباوة (دار الآفاق ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م الطبعة الثانية).
– جواهر البلاغة –تأليف أحمد السيد الهاشمى (الطبعة الثانية عشر دار الفكر).
–حاشية الشهاب على البيضاوى : المسماة عناية القاضى وكفاية الراضى –تأليف على أحمد بن محمد بن شهاب الدين ت ١٦٠٩م طبعة دار صادر).
–حاشية العلامة أحمد الصاوى المالكى على تفسير الجلالين الطبعة الأولى ١٣١٨هـ .
– حسن الابتداء فى سورة القرآن الكريم دراسة تطبيقية أ.د/ عبد المجيد (هنداوى ١٤٠٢ هـ – ١٩٩٩م) .
– الخصائص لأبى الفتح عثمان بن جنى النحوى ت ٣٩٢ هـ (تحقيق محمد على النجار – الطبعة الثالثة).
– خلاصة المعانى : للحسن بن عثمان الحسين المفتى ت ١٠٥٩ هـ تحقيق أ.د/عبد القادر حسين (الناشرون العرب – الرياض).
– دراسات فى التجويد والأصوات اللغوية أ.د/ عبد الحميد أبوسكين (مطبعة الأمانة – ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٣م).
– دراسات فى علم الأصوات اللغوية أ.د/ صلاح الدين محمد قناوى ، أ.د/ أحمد طه حسانين – الطبعة الثانية – ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م).

– دراسات فى النفس الإنسانية محمد قطب (دار الشروق الطبعة السابعة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م) .
– دراسات لأسلوب القرآن الكريم أ.د/ محمد عبد الخالق عضيمة (دار الحديث – القاهرة) .
دراسة الإمام عبد القاهر للفصل والوصل تحليل ونقد – أ.د/عبد العزيز أبو سريع ياسين (الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م) .
– دراسة نقدية وبلاغية أ.د/ الوصيف هلال الوصيف .
– درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات .فى كتاب الله العزيز – للخطيب الآسكافى ت ٤٢٠ هـ . (منشورات دار الآفاق – بيروت ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م الطبعة الرابعة).
– دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجانى تحقيق محمود شاكر الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م) .
– دلالات التراكيب دراسة بلاغية . أ.د: محمد أبو موسى (الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م).
– ديوان المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى (دار المعرفة – بيروت).
– رؤية جديدة للإيجاز والإطناب أ.د/ عبد الغنى بركة (الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م).
– سر صناعة الإعراب تأليف إمام العربية أبى الفتح عثمان بن جنى ت ٣٩٢ هـ – تحقيق د/ حسن الهنداوى (طبعة دار القلم دمشق – الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م).
– سر الفصاحة تأليف أبى محمد بن عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى ت ٤٦٦ هـ (الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤م مكتبة الخانجى القاهرة).
– السيرة النبوية لابن هشام . (دار التراث العربي)
– شرح ابن عقيل على ألفية الإمام أبى عبد الله محمد جمال الدين بن مالك ت ٦٧٢ هـ (طبعة دار العلوم الحديثة – بيروت).

– شروح التلخيص (طبعة دار السرور – بيروت).
– الصاحبى تأليف أبى الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ت ٣٩٥ هـ تحقيق السيد أحمد صقر (طبعة عيسى البابى الحلبى) .
– الصبغ البديعى أ.د/ أحمد موسى (طبعة دار الكتب العربى ١٩٦٩م).
– صحيح مسلم للإمام أبى الحسن مسلم بن الحجاج تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (دار إحياء التراث).
– صفوة التفاسير محمد على الصابونى (المكتبة الفيصلية – مكة المكرمة).
– الصناعتين الكتابة والشعر لأبى لأبى هلال العسكرى تحقيق عبد الباقى (دار إحياء التراث) .
الطراز المتضمن لأسرار البلاغة تأليف السيد يحيى بن حمزة العلوى (طبعة دار الكتب العلمية).
– ظواهر أسلوبية فى القرآن الكريم د/ عمر عبد الهادى عتيق (عالم الكتب الحديث أربد ٢٠١٠م).
– علم الأسلوب صلاح فضل (مؤسسة المختار – ١٩٩٢م).
– علم المعانى دراسة بلاغية ونقدية أ.د/ بسيونى فيود (مطبعة المختار – القاهرة).
– العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده – لابن رشيق القيروانى ت ٤٥٦ هـ – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (طبعة دار الجيل – بيروت – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨١م – الطبعة الخامسة).
– فتح القدير تأليف محمد بن على الشوكانى ت ١٢٠٠ هـ – (طبعة دار الحديث – القاهرة – ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م – الطبعة الأولى).
– الفتوحات الإلهية لتوضيح تفسير الجلالين تأليف سليمان عمر العجيلى الشافعى الشهير بالجمل ١٢٠٤ هـ (طبعة عيسى البابى الحلبى).
– الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى تحقيق حسام الدين القدسى (١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م) .
– فقه السيرة النبوية تأليف منير محمد غضبان (الطبعة الأولى – دار الوفاء – ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م) .

– فن البديع أ.د/ عبد الفتاح لاشين (طبعة ١٩٨٤م)
– فن البلاغة أ.د/ عبد القادر حسين (الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٤م) .
– الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان تأليف الإمام شمس الدين أبى أيوب الزرعى المعروف بابن القيم ت ٧٥١هـ.
– فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب (الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م دار الشروق).
– فى منزل الوحى محمد حسين هيكل (مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٥٦هـ – ١٩٣٧م .
– القرآن والصورة البيانية أ.د / عبد القادر حسين (الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ – ١٩٩١م دار المنار)
– الكتاب : لأبى بشر عمرو عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه ١٨٠ هـ دار الكتب العلمية : بيروت ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢م الطبعة الثانية).
– الكناية أ.د/ حمزة الدمرداش (المطبعة الحديثة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧م (الطبعة الثانية).
– لباب البديع أ.د/ محمد حسن شرشر (الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦م) .
– لباب النقول فى أسباب النزول للإمام السيوطى تحقيق عبد الرازق المهدى (دار الكتاب العبى – ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣م – الطبعة الأولى) .
– لباب المعانى أ.د/ محمد حسن شرشر (الطباعة المحمدية ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨م الطبعة الأولى).
– لسان العرب لابن منظور (دار المعارف).
– لغة المنافقين فى القرآن أ.د/ عبد الفتاح لاشين .
– مباحث فى علوم القرآن أ.د/ صبحى الصالح (طبعة دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٥ م الطبعة السادسة عشر).
– المثل السائر فى أدب الكاتب الشاعر لابن الأثير ت ٦٣٧ هـ تحقيق محمد محيى الدين (المكتبة العصرية – صيدا – ١٤١١ هـ ١٩٩٠م) .

-مجاز القرآن لأبى عبيدة معمر المثنى التميمى ت ٢١٠ هـ تحقيق محمد فؤاد شزكين (طبعة مؤسسة الرسالة – بيروت١٤٠١هـ-١٩٨١م الطبعة الثانية).

- المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى تحقيق محمد جاد المولى وعلى محمد البجاوى (طبعة عيسى البابى الحلبى).

- المطول تأليف سعد الدين التفتازانى ت ٧٩٢ هـ (طبعة أحمد كامل سلطان – تركيا ١٣٣٠هـ) .

- المعانى فى ظلال النظم القرآنى أ.د/ هاشم الديب .

- معانى القرآن – لأبى زكريا بن يحيى زياد الفراء ت ٢٠٧ هـ . تحقيق أحمد يوسف نجاتى ، محمد على النجار (طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة).

- معانى القرآن وإعرابه لأبى إسحاق إبراهيم المعروف بالزجاج تحقيق عبدالجليل عبده شلبى (طبعة عالم الكتب١٤٠٨ هـ-١٩٨٨م- الطبعة الأولى).

- معترك الاقران فى إعجاز القرآن : للحافظ جلال الدين السيوطى ت ٩١١ هـ تحقيق على محمد البجاوى (طبعة – دار الفكر العربى).

- معجم الألفاظ والأعلام القرآنية محمد إسماعيل إبراهيم طبعة دار الفكر العربى).

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم رتبه محمد فؤاد عبد الباقى (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٥).

- المعجم الوسيط أخرج هه الطبعة د، إبراهيم أنيس، د/ عبد الحليم منتصر (طبعة دار الفكر – بيروت – الطبعة الثانية).

- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ت ٥٠٢ هـ - تحقيق محمد سيد كيلانى الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ - ١٩٦١م).

- مقاييس اللغة لأبى الحسن أحمد بن فارس زكريا ٣٩٥ هـ تحقيق عبد السلام محمد هارون .

- ملاك التأويل تأليف أحمد بن إبراهيم الزبير الغرناطى تحقيق سعيد الفلاح (١٩٩٣م).

- من أسرار البلاغة فى القرآن أ.د/ محمد السيد شيخون الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م – الكليات الأزهرية).

– من أسرار التعبير فى القرآن حروف القرآن أ.د/ عبد الفتاح لاشين طبعة دار المريخ).
– من أسرار التعبير فى القرآن صفاء الحكمة أ.د/ عبد الفتاح لاشين ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م دار المريخ).
– من بلاغة القرآن د/ أحمد أحمد بدوى – (طبعة دار نهضة مصر – القاهرة).
– من بلاغة المعانى أ.د/ الوصيف هلال الوصيف.
– من بلاغة النظم القرآنى أ.د/ بسيونى فيود (الطبعة الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م – مطبعة الحسين الإسلامية).
– موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس (الطبعة الخامسة).
– نشأة الفنونن البلاغية أ.د/ حمزة الدمرداش (دار الطباعة المحمدية ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م).
– النبأ العظيم أ.د/ عبد الله دراز الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ .
– نظرات فى البيان أ.د/ عبد الرحمن الكردى (١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م – الطبعة الثالثة) .
– نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور تأليف برهان الدين أبى الحسين إبراهيم البقاعى (الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م) .
– النقد الأدبى الحديث د، غنيمى هلال (دار الثقافة – بيروت ١٩٧٣م).

۞۞۞

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣٠٥٥
التمهيد	٣٠٥٩
– إطلالة على السورة الكريمة	٣٠٦٠
– عدد آياتها – مكية السورة أو مدنيتها .	٣٠٦٠
– بيان سبب تسميته السورة	٣٠٦١
– ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها	٣٠٦٢
– الأفكار الكلية للسورة الكريمة	٣٠٦٥
* **الفصل الأول** :من بلاغة التعبير القرآني في الفتح المبين	٣٠٧٠
المبحث الأول : الرسول – ﷺ – والفتح المبين الآيات ن ١ : ٣	٣٠٧١
المبحث الثانى: المؤمنون والفتح المبين الآيات من ٤ : ٧	٣٠٨٨
المبحث الثالث : بيعة الرضوان الآيات من ٨ : ١٠	٣١٠٥
* **الفصل الثانى : من بلاغة التعبير القرآني في** الحديث عن الأعراب وصفاتهم كما وردت فى السورة	٣١١٧
المبحث الأول الأعراب والدعوة إلى القتال فى سبيل الله . الآيات : ١١ :١٤ .	٣١١٨
المبحث الثانى : الأعراب والغنائم الآيات : ١٥ : ١٧.	٣١٤٠
* **الفصل الثالث** : من بلاغة التعبير القرآني في الحديث عن المؤمنين	٣١٥٧
المبحث الأول : صفات المؤمنين كما وردت فى السورة . الآيات من ١٨ : ٢١ .	٣١٥٨
المبحث الثانى : نصر الله للمؤمنين . الآيات من ٢٢ – ٢٧ .	٣١٧٠

الموضوع	الصفحة
المبحث الثالث : ثناء الله – تعالى – على الرسول – ﷺ – والمؤمنين الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ .	٣١٩٧
* **الفصل الرابع** : من بلاغة البنية المعجمية والصوتية والصرفية فى السورة	٣٢١٠
المبحث الأول : بلاغة البنية المعجمية .	٣٢١١
المبحث الثانى : بلاغة البنية الصوتية .	٣٢١٤
المبحث الثالث : بلاغة البنية الصرفية	٣٢٢٠
الخاتمة	٣٢٢٣
أهم المصادر والمراجع	٣٢٢٨
فهرس الموضوعات	٣٢٣٨

❁❁❁